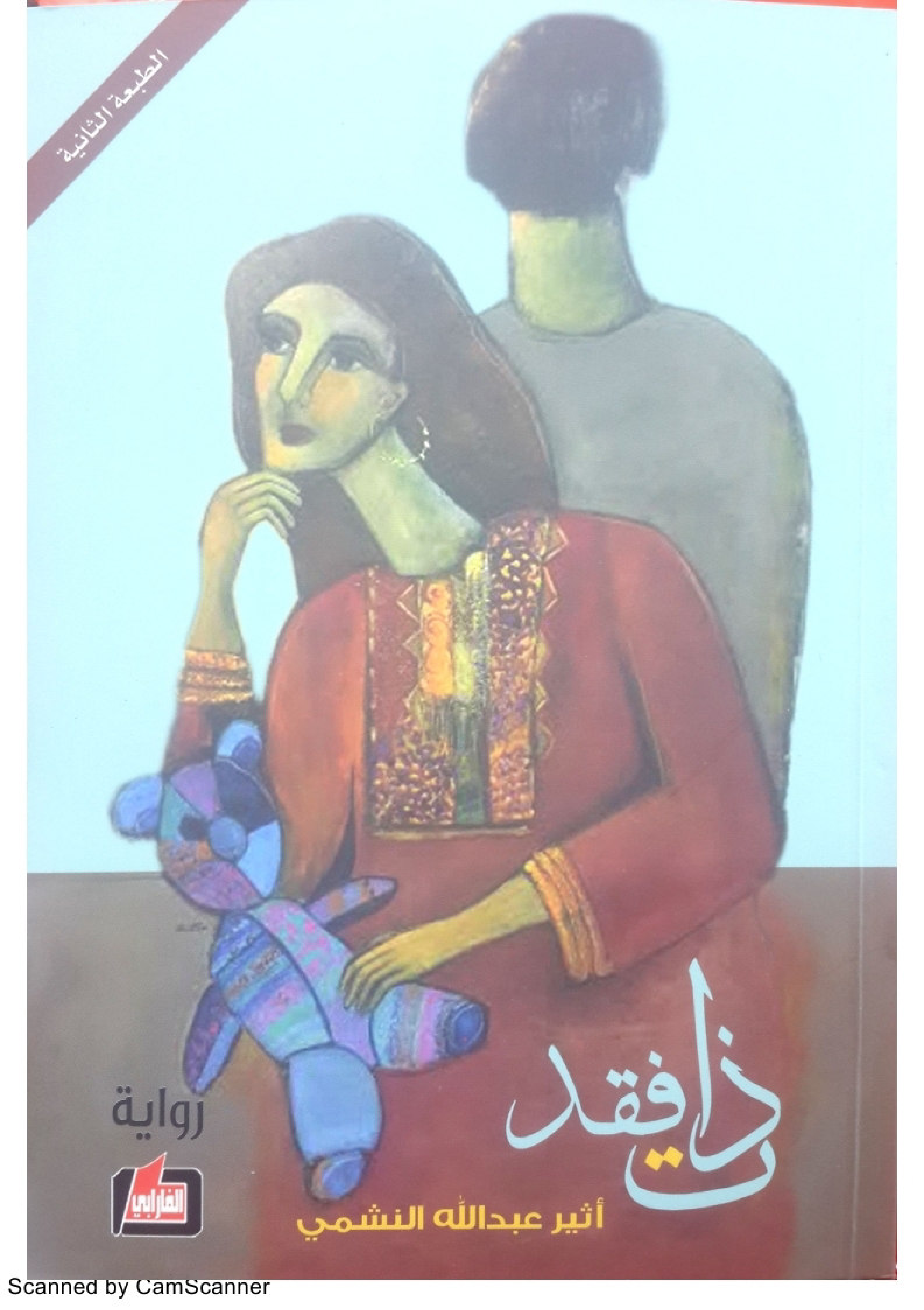


Scanned by CamScanner

أثير عبدالله النشمي

ذات فقد

رواية

دار الفارابي

الإهداء

لا أُريد أن أُهدي الأحياء فقداً، لذا سأُهدي روايتي إلى رضية..
صديقتي التي توفيت في عامها العشرين..
مضت عشر سنواتٍ على رحيلك، والندم لا يزال يلاحقني في كُل يومٍ بسبب عدم ردّي على مُكالماتِكِ الأخيرة..
كم أحتاجُ لأن أعرف، ما الذي كُنتِ تريدين قوله!، سامحيني..
لو تدرين كم اشتقتك!

ولدتُ في يونيو، أحببتُ في فبراير، تزوجتُ في سبتمبر، وأصبحتُ أماً في أغسطس، هذه باختصار حكايتي، امرأة تؤمن بالتاريخ واسمها ياسمين.

مولدي لم يَكُن معجزة، لم يكُن استثنائياً لكنه لم يكُن عادياً أيضاً.. ولدتُ في صباحِ السادس من حزيران/ يونيو من العام ١٩٨٤م الذي كان يُصادف السابع من شهر رمضان في التقويم الهجري في المستشفى الجامعي بالرياض وذلك أثناء الحرب الإيرانية/ العراقية، وهو العام الذي صام فيه المسلمون ثمانية وعشرين يوماً، نتيجة لخطأ في تحديدِ بداية شهر رمضان! فصام المسلمون ثمانية وعشرين يوماً، فقدر لي وعليَّ أن أصومَ عن الحُب تكفيراً عنهم ثمانية وعشرين عاماً!

جئتُ بعد مخاض طويل، تقول أمي إنها قضت اثنتين وعشرين ساعة في غرفة الولادة قبل أن يُقرر الأطباء حثي على المجيء عن طريق الطلق الصناعي، أبصرتُ النور بعد عشر ساعات عجاف رُغماً عن أنفي الصغير الذي لم يكن يتجاوز حجمه حبة عنب « آنذاك».

أعرف اليوم أنني كُنت أخشى المجيء، كُنت أفضل البقاء في رحمِ أمي، لكنني جئت في نهاية المطاف، بمشيئة الله ومن دونِ أن أشاء!..

كان ترتيبي الثانية بين ثلاث فتيات، فدأبت منذ ذلك الحين على أن أنتصفَ كُل شيء، لا أبتدئ السلاسل ولا أنتهيها، بل أكون قلبها دائماً، الحلقة التي تربطُ الحلقات بعضها ببعض، ابتداءً من مولدي وإلى الأبد.

والدتي التي «توحمت» أثناء حملها بي على لحمِ الغزلان، والتي أحمل مغبة « وحمها» الغريب ذاك، وحماً خفيفاً على زندي الأيمن، بهيئةِ غزالٍ واثق بقرنين شامخين!.. قضت فترة نفاسها بي في مزرعةِ والدي خارج مدينة الرياض، ولم أسأل والدتي يوماً لِمَ اختارت أن تقضي فترة ما بعد الولادة والمخاض في مزرعةٍ بعيدة عن كُل شيء وأي أحد!.. رُغم أنها لم تقضِ فترة نفاسها بغيري في المزرعة، لكن ذلك لم يَكُن الاستثناء الوحيد الذي حظيتُ به؛ فأنا الفتاة الوحيدة من بينِ شقيقاتي التي قام والدي باختيارِ اسمها، وعليه كُنت ياسمينة في مكانٍ أُدرك اليوم أنه كان مشروع والدي الأجمل وأحب الأماكنِ إلى قلبه الرقيق.

كانت مزرعتنا رقيقة كوالدي، فيها جداول صغيرة حلوة الماء وبئر ارتوازية عميقة، وأنواع كثيرة من الورود والفراشات والعصافير، وقد كانت تنتشر في زوايا مساحاتها الشاسعة النوافير والشلالات والبيوت الخشبية.

كان يعملُ في المزرعة ثلاثة عُمال مِصريين، عبدالرحمن وسعيد والعم رمضان الصعيدي العجوز بوجههِ المليء بتجاعيد الزمن وبتجاربِ الحياة العاتية، بالإضافة إلى العامل الرابع الهندي الجنسية والذي كُنا نطلق عليه أنا وشقيقاتي اسم «باي باي مُهمد»؛ فمُحمد الهندي لم يَكُن يُجيد العربية، لذا كنا نلوح في وجهه كُلما قابلناه أنا وشقيقاتي صائحين ببراءة طفولية «باي باي مُهمد» حتى أصبح مُحمد الهندي يُعرف بنفسه باسم «باي باي مُهمد» عند حضورِ أي غريبٍ إلى المزرعة.

المزرعة تحتل جزءاً كبيراً من ذاكرةِ طفولتي مع أبي، حيث كُل شيء كان جميلاً وصافياً وطبيعياً وخلاباً، صوت خرير الماء والورود الملونة، والمساحات الخضراء، النخلات السامقات، وأوراق ورد الجوري الذي كُنا نضيفه إلى الشاي! والذي سُميت أختي التي تصغرني بعامٍ واحد بجوري تيمناً به!، النعناع المزروع في كُل مكان، «الترنج» الذي كُنا نزيل الجزء الحامض منه ونضع فوقه السُكر لتناوله في كُل عصر كتحلية، وحوض السباحة الكبير الذي لم أجرؤ يوماً على السباحةِ فيه.

لم أكَن طفلة لافتة، لكنني كُنت طفلة غريبة بكُل تأكيد؛ فبينما شقيقاتي كُن يسبحن في حوضِ السباحة كُنت أسبح أنا في النوافير خوفاً من الغرق، وحينما كُنّ يتدربن على الرمايةِ كُنت أنا أقطف

الأزهار وعلى رأسي قبعة والدي المصنوعة من خيزران، وقد زينتها بوردة بيضاء صغيرة.

كُنت أركض بهدوءٍ، وألعب بصمت، لم أكُن أحب أن يُخالطَ صوت الطبيعة شيء، وهكذا كبرت!، كبرتُ فتاة خجولة، انطوائية وهادئة.. لم أكُن ألعب كثيراً مع الأطفال، كُنت أقضي أوقات لعبي في نسجِ حكايات حُب بين الدُمية باربي وزوجها كين، أجلس معظم الأوقات في زاوية الغرفة وحدي لألهو قبل أن تجيء شقيقتي جوري التي تصغرني باثني عشر شهراً وتُثير صخباً تفسد فيه قصتي!

عندما أعود بذاكرتي إلى تلك الأيام، أُدرك تماماً كم كُنت طفلة محظوظة حينذاك، فقد كُنت ثمرة حُب كشقيقاتي اللاتي جئن بحُبٍ مع سبق الإصرار والترصد؛ فالحُب الذي كان يربط والديّ كان غامراً ورقيقاً ومثالياً لدرجةٍ لا تشوبها شائبة.. كُنا نعيش حياةً أقل ما يُمكن أن يُقال عنها إنها مُتناهية السعادة لولا الموت الذي خطف والدي على حينِ غرة، والذي خلف في دواخلنا ندوباً لا لن نشفى منها يوماً.

عندما رحل والدي، قررت أن لا أتزوج إلا رجُلاً عظيماً مثله، رُغم سني الصغيرة إلا أنني حلمت برجلٍ يُحبني كما كان والدي يُحب والدتي، رجُل أُحبه بالقدر نفسه لحبّ أمي لأبي!.. ظننت حينذاك أن في العالم رجالاً كذاك الرجل، وأن إيجاد رجُلٍ كأبي لن يصعب عليَّ، ولن يُكلفني شيئاً، ولم أدرك إلا بعدما كبرت، وفعلت

بي الحياة ما فعلت، أن مجيء رجُلٍ كرجلي الأول «أبي»، قد يكون مُستحيلاً، أو فلنقل «شبه مُستحيل»، وبأن رجُلاً كفارسِ أحلامي، لن يهطل عليَّ إلا إن سربته السماء لي أو أغدقت به عليَّ، لذا ظللتُ أحلم بأن تتحقق يوماً المُعجزة، وتوهمتُ يوماً أنها تحققت!

أن تعيشَ الفتاة بدونِ أب في مُجتمعٍ كمُجتمعنا، يعني أن تقفَ طوال حياتها على ساقٍ واحدة بحيث أنّ أي هبَّة هواء قد تُطيحها، فلا مُتكأً تتكئ عليه، ولا سنداً تستند إليه ولا أُسساً تُبقيها راسخة.

أن تكبرَ بدونِ أب يعني أن تخضع لكل أنواع الظُلمِ مُبكراً، يعني أن يكبرَ همك قبل أن تكبر وأن تظلَ أسير طفولتك مهما كبرت، فتنضج وأنت لاتزال أخضر!

شعرتُ في أيام حالكة كثيرة أن والدتي هي التي تسببت بموتِ أبي، كُنت يومذاك ألعب أمام التلفاز حينما جاءت والدتي وحملت أختي الصغيرة من حضنه وطلبت إليه أن يبتاع لها الهيل والقرنفل لأن أخوالي كانوا يعتزمون زيارتنا بعد صلاة المغرب.. لا يزال صوت أبي يرن في أذني وهو يسألها أن تؤجل ذلك لما بعد الصلاة، لكنها أصرت على أن يذهب ليُقابل الموت وحده.

لم يَكُن والدي يرفض طلباً لأمي حتى لو كلفه ذلك حياته، فعاد

كيس القرنفل والهيل اللذان طلبتهما مُلطخين بالدماء مع شماغ أبي وبقايا ثيابه!.. فكبرتُ وأنا أمقت القهوة، مشروب الموت الذي لم أحاول شربه يوماً!

وعلى الرغم من أنني أصبحت محظية أمي بعد رحيل أبي -ربما لأنني الوحيدة التي قام بتسميتها - إلا أنني لم أتمكن من أن أكسر حاجز الجليد الذي يفصلني عنها.. كان حاجزاً قاسياً يفصل بيننا رغم أن كلاً منا كانت ولا تزال ترقب الأُخرى بعينين ملؤهما الحاجة، إلا أنني لم أتمكن من مُساعدتها في إذابة ذلك الجليد الذي لم تتمكن يوماً فهم أسبابه!

أذكر أنني سمعت أثناء العزاء أن السيارة التي كانت سبباً بقتلِ أبي، كانت من نوع «الهايلكس»، وكان سائقها فتًى طائشاً في السادسة عشرة من عُمره، ومنذ ذلك الحين ونوبات الهلع تنتابني عند رؤيتي لأي سيارة مُشابهة لها ، فيخفق قلبي بسرعة وأتصبب عرقاً ويضيق المكان بي، وأشعر أنني أكاد أهوي وأسقط إلى الأبد من دونِ حراك.

لا أعرف لماذا وقعتُ وحدي أسيرة لأزمة الموت تلك.. لِمَ أنا بالذات..؟!، شقيقتاي الاثنتان تابعتا حياتهما من دون أية آثار تذكر، وكأن الموت والفقد لم يمرّا عليهما ولم يمسسهما، ولا أعرف حقيقة كيف لم يترك لديهما بعضاً من آثاره رُغم تشويهه إياي بوشومهِ الكثيرة!

كُل يوم يمرّ الموت بي، يطوف فوق رأسي، يحوم حولي ببرودهِ المُهيب، كل يومٍ أشعرُ بذراعهِ تُحيط جسدي، تُطبق على قلبي، فأرتجف خوفاً وأنزُّ موتاً، فيضحك الموت سخرية ويرحل بعيداً ويتركني أنفض بقاياه العالقة بي وهو يقهقه «لنا موعد قريب»!

منذُ رحيل أبي وأنا أرى الموت كُل يوم، أشمُ رائحته، أشعرُ به وأسمعُ صوته، لكنني لا أملك القدرة على التحدثِ إليه، ولا أملك الجرأة على النظر في عينيه، فأقابله كل ليلة مطأطئة الرأس، لامعة الجبين.

الموتُ يغتصبني كل ليلة، يزورني في اليوم أكثر من مرة، في كُل مرة يقترب فيها الموت مني، أترك جسدي له ولا أقاوم، فيعبث بروحي ويلهو بها، حتى يمل من اللهو بي ويتركني لميعاد جديد.

أفكر فيمن سيأتي ويُنقذني من معمعة الموت تلك، من سيقدر على أن يتعايش مع رائحة الموت التي تفوح من مساميّ الصغيرة، من سيتمكن من إلجامُ صوت الموت الصادح داخل رأسي، من سينتشلني من لجته التي تكاد تُجهزِ عليّ، وتفتك بي.

أُفكر وأُفكر وأُفكر بلا إجابات شافية ولا نتائج مُقنعة، فأدور في مطحنة الأفكار وأتيه في دهاليز الأسئلة.

الوحدة تدفعنا لأن نُفكر فيمن لا يفترض بنا التفكير بهم، تدفعنا لأن نُفكرَ فيما لا يفترض بنا التفكير به، الوحدة هي من تُعري أوجاعنا، من تخلع عنها كُل ما يسترها ويداويها، ما يُجملها وما يسكنها..

الوحدة هي لحظات تتجلى فيها حاجاتنا المستكينة والخاملة، فتستيقظ كل الحاجات والرغبات والآلام والأوجاع المُخدرة، لنتيه ألماً في زخمِ الوجع!

لا يفهم الناس ما معنى أن تملك أشياء كثيرة، ورُغم ذلك تنزف وحدة وتنزُّ فقداً؟!

أنا أعترف بأن اشتياقي لا يُشبه اشتياق الآخرين، ولا يُعادل أشواقهم مُجتمعة.. شوقي معجون بماءِ الحُزن ودقيق الكآبة.. شوقي لا حل له، فأوله فقد وآخره خسارة ولا أمل يربط بين بداياته والنهايات.

أحاول أن أطرد شيئاً من يأسي ومن حزني لأنني لم أعد قادرة على احتواء كُل هذا اليأس، وكل هذا الحزن، وليس لديّ القدرة على أن أسرّب منهما شيئاً وكأنهما يأبيان أن يمسّا أحداً غيري!

عندما تنتهي علاقة حُب تثور أحزاننا لمدة طويلة ولا تهدأ إلا بعد عُمرٍ طويلٍ من الحُزن، لكن عندما تنشأ علاقة حُب بين حي وميت يبقى الحُزن مُلتهباً، دامياً، نازفاً حتى نموت!

عندما رحل والدي، شعرتُ بأنني عالقة في منطقة برزخية، منطقة بين ضباب الموت وسراب الحياة، ولم ينتشلني من تلك المنطقة أحد حتى جاء مالك! جاء مالك ليمد لي يداً دافئة، يداً تسعى لأن تُنقذني من كُل ذلك البؤس.. ترددتُ كثيراً لكنني مددتُ يدي إليه، كُنت بحاجةٍ إلى يدٍ تنقذني، كُنت بحاجة إلى رجلٍ يسعف قلبي، رجُلٍ يمنحني شيئاً من الحياة التي شعرتُ بأنني قد فقدتها بعدما حلت فوق رأسي غيمة الفقد.

عولتُ كثيراً على مالك، رأيتُ فيه كل ما احتجتُ أن أراه يوماً، استندتُ إلى كتفه ليقودني إلى العالم الذي لطالما خفت من الخوض فيه.. وثقت بمالك.. سلمتُ له حياتي، وتحديتُ من أجل أن أتزوجه العالم أجمع!

أُفكر اليوم «لِمَ تزوجت مالك؟!».

يُخيل إلي أحياناً أنني لم أكُن حاضرة تلك الفترة، وكأن تلك الحكاية وذلك الزمن لم يكونا إلا محض فراغ!

أظنُ أنني اخترت مالكاً لأنه مثلي مثخن بالكثيرِ من الجراح، ولأنه مثلي لا يُجيد الحديث عنها! ظننت أننا سنجد ونحن معاً مُتكأ نتكئ عليه إن داهمتنا نوبات الفقد، لكننا لم نتشارك يوماً لحظة منها، لم نتشارك جرحاً ولم نتحدث عن ذلك قطّ.

كان والد مالك رجُلاً مزواجاً، ومع أنه لم ينُجب من امرأة باستثناء أم مالك، إلا أنه لم يتوقف عن التنقلِ بين النساء طوال حياته، ورُغم أن مالكاً دائماً ما كان يتحدث عن زيجات أبيه تلك بسخرية، إلا أنني أُدرك كم أدمى هذا قلبه، هو الرجُل الشديد التعلق بأمه، والذي لم يزده ابتعاد أبيه عن أمه بسبب تلك الزيجات، إلا قرباً وتعلقاً بها.

دائماً ما كان مالك يصف أمه بالمرأة الكاملة، لكنني لستُ كاملة على الرُغم من تحفظي على كمالِ أمه!

أنا لستُ كاملةً، لستُ كاملة على الإطلاق، ينقصني الكثير مما يوجد في النساء، لكن لدي الكثير مما لا يوجد فيهن، وهو أيضاً رجُل لا يقارب الكمال، لكنه حتماً هو الرجل الأقرب إليه!

هو رجُل على الرغم من بساطته إلا أنه شديد التعقيد، رجُل مع كل طيبته إلا أنه لا يؤتمن، ومع أنه يُشبه الجميع إلا أن لا أحد يُشبهه، لذا علقنا معاً، سقط كُل واحد منا في الآخر، وعلق فيه وتعلق به، وهكذا أحببته رغم أوجاعي، وأحبني رغم جراحه.

هذا النوع من الحُب مُنهك جداً، هذا الحُب يدفعنا لأن نتخلى عن كُل شيء ونهرب على أمل أن نحظى بعد ذلك بالسكينة أو حتى على لحظةِ راحة، لكنني مع كل ذلك لم أتخلَ يوماً عن مالك، على الرغم من أنني اكتشفتُ الكثير من خياناته لي وبعد أشهر قليلة من الزواج، إلا أنني لم أفكر في تركه يوماً.

شيءٌ ما في مالك كان يدعوني إلى البقاء، لا أعرف إن كان شيئاً واحداً أو أشياء، لكن مالك كان يعرف كيف يُبقيني رغم علاقتنا المُنهكة، وزيجتنا التي كانت تعرج كفرسٍ مُصابة.

أنا أعرف مُعظم نساء زوجي قبل زواجنا، مُعظمهن وليس جميعهن، حدثني عن كل مرة نام فيها مع كُل واحدة منهن، كيف كان مذاقها، كيف كان يشعر حيالها، كيف بدآ ومتى انتهيا، كان يُحدثني عن تفاصيل علاقاته ببساطة من اعتاد الحديث عن ذلك، ومع ذلك تزوجته!

لا أعرف!، ربما ظننتُ حينذاك بأن هذا ديدن جميع الرجال!، ربما أوهمتني القصص التي كُنت أسمعها عن الرجال في مجالس النساء أنّ كُل الرجال هم على هذه الصورة في مرحلة العزوبية، ربما أقنعتني الكتب أن هذه طبيعة الرجال قبل الزواج، لا أعرف!، كُل ما أعرفه أنني ظننتُ بأن هذه مرحلة إجبارية، يعبر فيها كُل رجُل ليصل إلى مرحلة الزواج والاستقرار والوفاء لامرأة واحدة.

أنا ومالك نختلف كثيراً لدرجة تُدهش الآخرين، أنا أيضاً يُدهشني جداً تناقضنا.. أنا لا أعرف على ماذا تعتمد علاقتنا، وإلى أي مدى نحن نُحب بعضنا بعضاً، لا أعرف إلا أن مالكاً يُساعدني على البقاء، وعلى أن وجودي في حياة مالك لم يَكُن عبثياً قطّ!

فهذه السيرورة الغامضة المتماهية، مُعقدة المشاعر، مُبهمة الملامح و مُتناقضة الأفكار ومُتشابكة التفاصيل؛ فمالك، وعلى الرغم من عيوبه الكثيرة هو رجُل ساحر، رجُل مخلوق من نهاوند، ومن أحلامٍ ومن أوركيد، رجُل يُشبه أبطال التاريخ وآلهة الحُب، وملائكة العالم الآخر.

هذا الرجُل هو رئتاي اللتان أتنفس بهما، هذا الرجُل قطعاً من يدفعني للبقاءِ حية، هذا الرجل هو آخر أحلامي وأصدق واقع.

لطالما كُنت أؤمن أنه من الواجب على البشر ألّا يتزوجوا إلا في حالات الحُب وبعد أن يعيشوها طويلاً.. كُنت أظن أن الزواج ليس إلا تتويجاً للُحبِ والسبيل الأكثر قداسة لمنحهِ السرمدية، لذا أحببت مالكاً فجأة، وتزوجتُ به فجأة.

التقيت مالك لأول مرة في صباح ماطر من صباحات بيروت، استيقظت باكراً قبل أمي وشقيقتي جوري وزهور اللاتي لم يكُن الصباح من أولوياتهن قطّ، إذ لطالما كان الكسل من سمات الإجازة، خصوصاً إن كانت إجازة شتوية في مدينةٍ لا تُجيد إلا السهر كبيروت، أيقظتُ أمي وأخبرتها أنني سأنزل إلى البهو لأفطر وأقرأ ريثما يستيقظن، نزلتُ إلى البهو بنشاطٍ لا يليق بصباح شتوي كسول، رفعت كوب الشكولاتة الساخنة حينما لفتني شاب على طاولة قريبة ينظر إلي بصراحة، عبست في وجهه حتى وقعت عيناي على الكتاب نفسه بين يديه فابتسمت رغماً عني من غرابة المصادفة.. وابتسم!

عندما يبتسم مالك تضيق حدقتاه، تظهر ثلاثة تجاعيد في زاوية عينه الخارجية وتلمع عيناه كذئب في مُنتصف الليل، حينما يبتسم مالك تتغير كل الألوان، تزداد سرعة دوران الأرض وترتفع حرارة جسدي من وطأة العذوبة.

كان غريباً أن نقرأ الكتاب نفسه، لم يكن كتاباً رائجاً ولم يَكُن كتاباً عادياً، وبرغم الفلسفة الفريدة التي يتضمنها فيما يتعلق بأسرار الأجساد، إلا أنه كان فجاً، ربما كان فجاً بالنسبةِ إليّ كفتاة على أقل تقدير، كما أنّ رؤية رجُل أجهله يشاركني قراءة تلك الفلسفة مُبتسماً في وجهي جعلت الدماء تتفجر في وجنتي حرجاً.

عندما بادلت مالك الابتسامة، شعرت بشيء غريبٍ يجتاحني، شيء كان من الواضح جداً أنه قد اجتاح مالك أيضاً.

مالك من البشر الذين لا تحبهم من النظرة الأولى لكنك تعشقهم من البسمة الأولى، وأظنني قد وقعت به منذ ابتسامته الدافئة تلك.

وقعتُ به بسرعةٍ لا تُصدق، أنا المبتدئة في عالم الحُب، المرأة التي لا تقدر على أن تضع عينيها في عينيِ رجُل، المرأة التي تهاب الرجال وتهرب من أي مواجهة مع واحد منهم.

التقيت مالكاً مصادفة مراتٍ كثيرة خلال ذلك الأسبوع، كنت أراه أثناء خروجي إلى بهو الفندق ودخولي إليه، دائماً ما كان يجلس

في الركن ذاته وفي التوقيت نفسه، يقرأ وحيداً هُناك في كُل المرات التي صادفته فيها، وقد كان هذا مغرياً لامرأة تعرف أنّ القراءة بالنسبة إلى مواطنيها من الذكور ليست من قائمة الأولويات!

اختفى مالك فجأة من ذلك الركُن، لم أعد أصادفه هُناك، فعرفت أنه قد غادر الفندق وقد غادر محطة اللقاء... بعد اختفائه بثلاثة أيام، وفي اليوم الذي كُنا سنغادر فيه بيروت، استيقظتُ صباحاً كعادتي ونزلت إلى بهو الفندق لأفطر وأقرأ، جاءني أحد العاملين وفي يده كتاب، قال:

- صباح الخير يا آنسة!
- صباح النور!
- هذا آخر يومٍ لكم في بيروت، أليس كذلك؟
- صحيح، سنغادر اليوم.
- لَكَم هذا مؤسف، ستفتقدكم بيروت كثيراً.
- وسنفتقدها أيضاً، شكراً على لطفك.

مد الكتاب إلي قائلاً: بل شكراً لتشريفكم لنا، هذه أمانة، ولديّ توصية بأن أوصلها إليكِ عند مغادرتكن.

لم أكن ساذجة إلى درجة أن لا أعرف المُرسل، توقعته وأصبت في ذلك التوقع، أخذت الكتاب بعدما شكرت الموظف، فتحته بقلبٍ يرتجف لأجد مالكاً قد خط عليه بخطٍ عربي حقيقي وأصيل:

« أراكِ في مستقبلي، هذا عنوان بريدي الإلكتروني، أنتظر مراسلتكِ إياي إن كنتِ ترينني في مُستقبلكِ كذلك»، ابتسمتُ وراسلته تلك الليلة لأنني لم أكن أرى في مُستقبلي سواه!

لا أحد قادراً على أن يختار قدره، لكنني أشعر أحياناً بأنني كُنت لأختار هذا القدر.

لستُ سعيدة مع هذا القدر، لكنني لستُ تعيسة أيضاً، أنا وهو في حالةِ تراضٍ، رضيتُ بما قُدر لي ورضَي عني برضاي عنه، تعايشنا على مضضٍ ومضينا بانتظارِ نهاية ننفكُ فيها بعضنا عن بعض، فأموت وأفنى ويمضي مع مخلوق جديد سواي.

مالك لا يُشبهني في هذا، هو لا يركُن إلى أقداره ولا يستجيب، يثور عليها فكراً ولفظاً، لا يخشى غضبها ولا أن تُعاقب رفضه لها بأقدارٍ أكثر قسوة.

ولدَ مالك أوائل الثمانينيات، جاء في يناير ليكون دائماً البادي والمبتدأ ،لم يكُن يوماً خبراً لأحد ولم يأتِ أو يتبع يوماً ظل أحد.

مجيئه لم يُكن مُهماً بقدر ما كان يستحق، جاء بعد ستة من الأبناء والبنات وبعد عام واحد من مجيء أخيه مُهند، وفي خضم ذلك الصخب كان مجيئه حالة مُعتادة، ولم يضف إلى العائلة وقتذاك

إلا فرحة سلامته وسلامة أمه وبعض المصاريف الزائدة عن الطاقة المفروضة لعائلة بسيطة لأبوين لم يتلقيا إلا تعليمهما الابتدائي فقط.

خيارات مالك في الحياة لم تكُن كثيرة، لم يُخير في طعام ولا في رداء ولا في لعبة ولا حتى في مدرسة، ،كان يرتدي ملابس إخوته الكبار التي ضاقت عليهم، ألعابهم كانت بدائية، حيثُ أنقذت الحجارة طفولتهم وحلت محل الكثير من الألعاب في ذلك الوقت.. درس مالك في مدرسة الحي العتيقة بمبناها القديم وأثاثها المتهالك مثلما درس فيها كُل إخوته من الذكور قبله.

لم يُكن «الخيار» مُقدراً له في طفولته، لذا قرر عندما كان طفلاً، أن يكبر وأن يختار!،أن لا يُجبره أحد في يوم من الأيام على قرار، وأن تكون كُل قرارات حياته محض اختيار!

لكنه لم يخترني ولم أختره، سُيّرتُ وسُيّر في طريق كُنا نجهل دهاليزه حتى جمعتنا لحظة اللقاء، اللحظة التي لم نخترها لكنها اختارتنا، وبدقة لا تُصدق!

مالك لم يكُن جائزة القدر لي، لكنه أيضاً لم يكُن عقاباً!

أفكر دائماً، كيف جاء مالك في طريقي، فمجيئه لم يكُن خياري، وفراقي عنه لم يُكن أيضاً خياراً، مالك كان اختيار القدر..

قدر، قدر.. أي يدٍ تلك التي تستطيع أن توقف القدر؟!

مرتُ ثلاث سنوات على زواجي من مالك..

كان زواجنا خيبة كبيرة، خذلان لا يُضاهيه في قسوتِهِ خذلان، اكتشفتُ خيانة مالك لي بعد أربعةِ أشهرٍ من زواجنا، سمعتهُ تلك الليلة وهو يُهاتف حبيبة قديمة، بعدها فتحتُ عينيّ المغمضتين جيداً، استخدمت أذنيّ اللتين لم أكن أستخدمهما معه، لتصدمني الكثير من الخيانات بعدها، خيانة تلو الخيانة منه وتجاهل يتلو التجاهل مني.. لكنني مللتُ هذه القسوة، مللتُ الحياة التي لا تُشبه الحياة، مللت واقعاً لا يُشبه الحلم، وزواجاً لا تتوافر فيه أهم شروط الزواج.

قضيتُ ثلاث سنوات في تلك المعمعة، ثلاث سنوات لأتوصل بعدها إلى قرار، حسمت أمري حينما سافر مالك مع أصدقائه في رحلته الأخيرة معهم، حزمتُ مشاعري مع حاجاتي المُهمة، تركتُ له كل شيء، ملابسي، مجوهراتي، مكتبتي وعطوري ومستحضرات التجميل وأدوات الزينة، زهدتُ في كُلّ ما يخصني في بيته، لم أحمل معي سوى شهاداتي الدراسية، هدايا عائلتي وصديقاتي، وصوري

وصور زفافنا وكأن شيئاً في داخلي يسعى لأن يمحو صورتي من ذاكرةِ مالك.

كُنت قد عزمت على أن أرحل عندما يصل، أردتُ أن يبدأ غيابي حال حضوره لتكون البداية النهاية / النهاية البداية.

بقيتُ أصارع قرار الانتهاء، لاكتني مخاوف الفقد والحاجة والاعتياد، صارعتُ في انتظارِ مالك الانفصال ألف مرة ومرة، وتجرعتُ علقم الخسارة في كُل ليلة انتظرتهُ فيها، كانت عودتُه بعيدة رغم أيام رحلته القصيرة، كان انتظارهُ قاسياً، قاسياً جداً.

وجدتُ في أحد الأدراج وأنا ألملم بطاقات التهاني والمُباركات ثلاثة اختبارات لفحص الحمل، كُنت قد ابتعتها في بدايةِ زواجنا أنا ومالك.

كانت لدي مخاوف كثيرة في بداية زواجنا من فكرة أن أُصبح أماً، امرأة مثخنة بالموتِ مثلي، لم تُكن مُستعدة بعد لأن تُساهم في منحِ الحياة حياة جديدة. كُنت أهرع لأُجرى اختبارات الحمل في كُل شهرٍ تتأخر فيه خصوبتي من التدفق، وقلبي يلهج بالدعاء أن لا تكون في رحمي حياة ما.

مرت ثلاث سنوات على حالات الفزع الشهرية تلك وعرفت خلالها أنني أُعاني مُشكلة هرمونية تحتاجُ إلى علاج طويلٍ لأتمكن من الحملِ يوماً.

لم أُكن مُتأكدة من أنني أُريد مشاركة مالك إنساناً، وهو بدوره لم يكُن مُستعداً بعد لأن يلتزم بمسؤولية أبدية، لذا لم أحرص ولم يحرص على أن أسعى للعلاج، نسينا موضوع الإنجاب وتناسينا رغم تلميحات الذين حولنا وتطفلاتهم.

لم تظهر علامات خصوبتي تلك الفترة، وبقيت حبيسة في داخلي قبل ذاك لثلاثة أشهر قبل أن تظهر.. أخذت واحداً من أشرطة فحص الحمل لأُجربه، كُنت أُدرك أنها محاولة اعتباطية لا معنى لها، لكن بقاء الأشرطة في بيتِ مالك بعد رحيلي لا ضرورة له أيضاً، لن أورث امرأة تأتي من بعدي إلى بيت مالك أدلة على انتظارِ شيء لم أسعَ إلى تحقيقه يوماً!

أجريت الفحص ووضعتهُ جانباً، فنتيجة الشريط تظهر بعد ثلاث دقائق، أخذت الفرشاة لأنظّف أسناني ووضعتُ مستحضراً مُرطباً لوجهي وآخر حول عيني لأثبت لنفسي أنني ما زلت حية، وبأن الحياة ستستمر بعد رحيلي عن مالك.. نظرتُ إلى الشريط وأنا أربطُ شعري، لأرى الخطين الإيجابيين يظهران بوضوحٍ تامٍ صارمٍ وقاطع!

اتسعت عيناي حتى آخرهما، تركتُ شعري وقربت الشريط من عيني ليُطالعني الخطّان القاتمان بتحدٍ وإصرار.

لا أعرف ما الذي فكرتُ فيه حينذاك، لا أعرف إن كُنت قد فكرتُ أصلاً، أمسكتُ الشريط بيدين ترتجفان، كُنت أبحلق فيه

بانتظارِ أن يختفي الخط الثاني أو يختفي كلا الخطين، لكن العمودين بقيا صامدين ومُتحدين في وجهي!

ركضتُ إلى الشريطين الآخرين، أجريت الفحص بواسطتهما من جديد، وبقيتُ أبحلق في الشريط الأول وأنا أنتظر تكذيبهما نتائج شريطٍ تالف ارتسم فيه خطا الحمل خطأً بفعلِ السنوات والحر الشديد اللذين أفسدا الشريط ونتيجته!

ظهرت الخطوط الإيجابية في كلا الشريطين تباعاً، ستة خطوط وقفت في وجهي هذه الليلة وهي تهمس بصرامة: فلتُصدقي ذلك، في رحمكِ حياة!

جلستُ على أرضية الحمام وأنا أحتضن الأشرطة الثلاثة وأضمها إلى صدري، دمعت عيناي وأنا أرتجف من هولِ الصدمة والخوفِ والمُفاجأة!

وضعتُ يدي أسفل بطني وأنا أرتعش، كيف تسكُنني حياة أُخرى!

إحدى نظريات الفيلسوف هربر سبنسر تقوم على فكرة أن المرأة المثقفة والباحثة فكرياً هي أقل خصوبةٍ من النساء الأخريات.

دائماً ما كُنت أفكر في نظريته تلك، أُتنجب النساء بعقولهن؟!

أم إنّ الله يشترط أن يكون ثمن الفكرِ أرواحاً صغيرة؟!

أبحثُ عن النماذج المُحيطة بي فتصدمني الحقائق؛ فجارةُ أمي الأُمية الخمسينية أنجبت عشرة أطفالٍ في غضونِ عشرين عاماً بينما أنجبت أخت صديقتي والحائزة الدكتوراه في علم الفلسفة طفلين خلال ربع قرن من الزواج.

النماذج حولي كثيرة حقاً، وجميع تلك النماذج تؤيد وبشدة نظرية سبنسر، لكنني أهرب منها إلى نظرياتٍ تدعم الأمل في نفسي، أُفكر في أن الثقافة هي التي تجعل المرأة راغبة في تحديدِ نسلها، تفضل الإنسانة المثقفة والعاملة أن تهتم بطفلين أو ثلاثة تفصلهم سنوات كثيرة من الرعايةِ لكُلٍ واحد منهم، بينما تفضل الأميات من النساء أن ينجبن أكبر عدد مُمكن من الأطفال ليقحمهنّ في الحياة التي تقوم بتربيتهم عوضاً عن أمهاتٍ منهكات بحملٍ جديد.

لو كان سبنسر مُحقاً لأصبحت كُل النساء متواضعات الفكر والثقافة وطبيعة العمل؛ فلن تُقايض امرأة خصوبتها مقابل أي شيء، حتى لو كان الثمن عقلاً يُميزها من غيرها ويجعل حياتها أكثر ثراءً واستحقاقاً.

دلفتُ إلى فراشي مُباشرة بعد صدمة الاختبار تلك، تكورتُ داخله وأنا أضع يدي أسفل بطني؛ جنونٌ هو ما يحدث!

لماذا يحدث الآن وكيف حدث رغم هرموناتي المُضطربة؟!، لماذا الآن؟ لماذا الآن؟!

كيف يجئ طفل إلى هذه الحياة على حينِ غرة، بلا تخطيط ولا انتظار ولا توقع؟، كيف يجيء عند خط النهاية، ليبتدئ مارثوناً جديداً في الحياة لكن من حيثُ النهاية؟!

كيف لم أشعر بروحٍ تسكُنني؟! لم يختل توازني، لم أشعر بالغثيان ولا بأي تغييرٍ جسدي أو نفسي، فكيف كُل هذا؟! وأي مجيء هذا الذي لم أقدر على الإحساس به؟!

تفوهتُ بالكثيرِ في الليلة التي سبقت سفر مالك، أخبرتُه بالكثيرِ من الأشياء عدا أنني أعلم عن خياناته شيئاً!

وقال هو كُل ما تمكّن من قولهِ أيضاً، تبادلنا الشتائم والقسوة والخيبات، نطقتُ قهري ويأسي وتعاستي، فجرتُها في وجهِ مالك وفجرها في قلبي فعرفتُ بعد خمود الانفجار أن من المُستحيل أن نقدرَ

على الاستمرارِ في هذا الزواج، حتى وإن لم أواجهه بموضوع الخيانة!

حينما يتفوه أحد الزوجين بما يجرح الآخر يستمر الجرح مُلتهباً طوال الحياة، ومن الصعب أن ننسى ما أساء إلينا به شركاؤنا في الحُبِ والزواج، من الصعبِ أن نتجاوز جروحاً كهذه.

جلدتُ مالك بكُلِ ما شعرت به تجاهه في سنين زواجنا، وصفعني بكُلِ ما فكر فيه وشعر به خلال علاقتنا، أسأتُ إليه وأهانني، فلم يتبقَّ من زواجنا المُتهالك إلا بقايا حُطام.

ماذا سأقول لمالك حين يعود؟!، أأخبرهُ أن نطفة تسللت منه وعلقت تحت حُطامنا، أم أخبرهُ أن الله أراد لشيءٍ أن يكون فكان!

لن يُصدقني مالك، وأنا بدوري غير قادرة على الاستيعاب، لا أعرفُ أي الأمرين أخشاه أكثر!، أن أُصدق أن طفلاً في داخلي أم أن أُخبر مالكاً بأمرٍ كهذا!

ألن أنتهي من مالك أبداً!

أيقظني القلق والترقبُ مُبكراً، لا أعرف إن كُنت قد نمت في الواقع، غرقتُ في شيءٍ يُشبه النوم ولا يُشبهه، كُنت أشعر بكُل ما حولي، صوت جهاز التكييف الخافت حيناً والحاد أحياناً، زقزقة الطيور التي كانت تُغرد بنشاط، خطوات الحمام الناعمة على نافذتي، أصوات السيارات التي كانت تعبر الشارع.

كُنت مدركة لكُلِ الأصوات وكُل الهمسات وكُل الخطوات، ورغم ذلك سقطت في هوة الأحلام، رأيتُ في أحلامي مالكاً، ورأيت أنني ذهبت إلى الطبيبة فأخبرتني أن حملي كاذب مثلما كُنت أرى دائماً في الأفلام العربية.

كُنت أُفكر دوماً في طفولتي، كيف لا يكتشف أبطال المسلسلات خداع زوجاتهم اللاتي كُن يضعن بالونات أو يكورن الملابس في بطونهن ليبدون حوامل، كُنت أفكر كيف لا ينفجر البالون حينما تنام فوقه الزوجة المُخادعة، وكيف لا تسقط الملابس حينما تمشي وتتحرك، كان خيالي محدوداً وبسيطاً ولا يستوعب ملاحظات أهم من ذلك!

لم أكن أفهم حميمية العلاقة الزوجية، ولا مدى عُريها وتعريها.. كان كُل ما يستفز عقلي وقتذاك، كيف لا ينفجر البالون وكيف لا تسقط الملابس!

اليوم أُفكر، كيف سأقدر على أن أُخفي حملي عن مالك، وإن قدرتُ على إخفائه كيف سأُنجب طفلاً من دون علم أبيه في مُجتمعٍ يأبى أن تستقبل مستشفياته امرأة في المخاض بلا زوجها أو بدونِ إثبات هويته.

فكرتُ في حُلمي المتيقظ ويقظتي الحالمة في كُل الأشياء وكُل الخيارات وكُل الاحتمالات، لكنني لم أتمكن من الوصول إلى قرارٍ من دونِ أن أصل إلى حقيقة قاطعة، لذا كان عليَّ أن أحسمِ الأمر، وأن أتأكد من صدقِ حملي.

وقفتُ أمام غلاية الماء في بيتي وأنا أتأمل حقيبة الرحيل التي أعددتها منذ أيام والتي تنام في صالة البيت بانتظار مجيء مالك.. كُنت أُفكر هل ستُغادر الحقيبة البيت بيدي بدونِ عودة أم أنها ستعود أدراجها لتقبع فوق الخزانة في غُرفة الملابس!

سكبتُ الماء الساخن في كوبي المفضل الضخم لأعد ربع ليترٍ من الشاي!، كانت تلك عادتي اللاصحية التي أُحبها كثيراً.. كان الشاي بالنعناع هي وجبة إفطاري اليومية، لم أُكن أتناول غير الشاي صباحاً وحتى موعد الغداء.. كانت رائحة النعناع شهية وكأنني

أحتسي الشاي بالنعناع لأولِ مرة؛ فللنعناع رائحة ومذاق يجعلانك تشعر في كُل مرةٍ وكأنها المرة الأولى.

تذكرتُ ما بداخلي وأنا أُقرب الشاي من شفتيّ، رغم شكوكي الحادة في أن يكون حملي واقعياً، ورغم عدم يقيني من أنني أرغب بالاحتفاظ بهذا الحمل، إلا أنني أشفقتُ على الحميل الذي أحمله، إذ كيف أوقظ حميلاً لم يُصبح جنيناً بعد بكوبٍ مُنبه.. كانت تلك جريمة في حق الطفولة وفي حق الأمومة أيضاً.. أخافني كثيراً أنني فكرتُ في الأمومة، وفي خوفي من أمرٍ لا أدري إن كان حقيقياً أم هو مُجرد وهمٍ صورته لي أشرطة اختبار الحمل القديمة، لكنني قُمت من أريكتي وسكبتُ الشاي في مجرى الماء في المطبخ، أعددتُ بيضاً مقلياً وكوباً من الحليب البارد وجلستُ أتجرعه من أجلِ من لا أعرف مشاعري تجاهه.

كانت في داخلي الكثير من المشاعرِ المُتناقضة، لم أقدر على تفسير مشاعري أو فهمها، لذا كان لزاماً عليّ أن أتأكد من حملي أولاً. ارتديتُ ملابسي وطلبتُ من السائق أن يجهز السيارة، توجهتُ إلى إحدى المستشفيات الخاصة القريبة من منزلي، والتي لا تبعد أكثر من خمس دقائق، فشعرتُ بها وكأنها خمس ساعات طويلة.

كان قلبي يخفق بقوة طوال الطريق، ازداد خفقانه حينما اقتربت من المستشفى، نزلتُ بقدمين مرتجفتين، اتجهتُ إلى قسم النساء والولادة وطلبتُ من موظفة الاستقبال أن تؤمن لي مقابلة إحدى

الطبيبات، سألتني الموظفة عن عُمري واسمي وأخذت مني بطاقة التأمين الصحية وعشرين ريالاً، سألتني بعدما أدخلت بياناتي في جهاز الحاسب: هل أنتِ حامل؟

سألتها وأنا أبتلع ريقي: عفواً!

كررت: أحاملٌ أنتِ؟

قُلت بصوتٍ هامس: لا أعرف!

طلبت مني أن أجلس في غرفة الاستقبال بانتظار النداء على اسمي. دلفتُ إلى داخل الصالة، كُنت أشعر بأن النسوة يُبحلقن فيّ، شعرتُ بأنني حُبلى بصورة غير شرعية وبأن أعينهنّ ترجمتني بقسوة!

نادت المُمرضة على اسمي سريعاً، تبعتها إلى غرفة الفحص بأنفاسٍ مُتقطعة، قالت لي الطبيبة السودانية الجنسية بعدما جلست: سلامات!

- الله يسلمك.

- ممَ تشكين يا ياسمينة؟

قُلت لها بصوتٍ مُرتجف: أجريت تحليلاً منزلياً لفحص الحمل ليلة البارحة.

سألتني بلا مُبالاة وهي تتأملني: وماذا كانت النتيجة؟

- كان التحليل إيجابياً!

ابتسمت وهي تُحرك قلمها بإصبعها ببرود: مبروك، أتريدين أن تُتابعي حملكِ معي؟

- أُريد أن أتأكد من هذا الحمل أولاً.
- ولماذا تشكين فيه مادام تحليل المنزل إيجابياً؟
- أخرجتُ لها نتيجة تحاليل الهرمونات التي كُنت قد أجريتها قبل ثلاثةِ أعوام، مددتها لها: لدي مشاكل عديدة، خمول في الغدة الدرقية، ارتفاع في هرمون الحليب، بالإضافة إلى أن لدي تكيسات في المبيض، أخبرني الطبيب أنه من المستحيل أن أحمل بدونِ علاج طويل ومُكثف.

سألتني وهي تقرأ التحاليل من وراء نظارتيها الطبيتين: وما هي الأدوية التي تتناولينها؟

- أبداً، لم أخضع للعلاج قطّ.

رفعت عينيها بدهشة وسألتني: ولماذا لم تُعالجي نفسكِ رغم أن التحاليل يعود تاريخها لثلاثِ سنواتٍ ماضية؟

- كانت لدي ظروف، ما يهمني الآن هو أن أتأكد من أنني حامل فعلاً.
- لا بُد من إجراء فحص للدم للتأكد من الحمل على الرغم من أن صحة التحليل المنزلي تُعتبر عالية طالما أنها إيجابية.

- وهل تستغرق نتيجة فحص الدم وقتاً طويلاً؟
- ساعتين.

سألتها برجاء: أنا مُستعجلة، ألا يوجد طريقة أسرع للتأكد؟

- متى كانت آخر مرة اعتدتِ فيها؟
- قبل شهرين تقريباً.
- إن كان الحمل منذ تلك المدة سيظهر معنا من خلال جهاز السونار، وإن كان حملكِ مُتأخراً فلابُد من إجراء ما يلزم من التحاليل للتأكد.
- أيمكننا أن نُجرب السونار قبل فحص الدم؟

قامت من مكانها واتجهت إلى سرير في زاوية الغرفة: فلنرَ.

تمددتُ على السرير وقلبي يكاد يقفز من صدري من شدةِ التوتر.. كشفت بطني ووضعت فوقه مادة شفافة لزجة وباردة، أمسكت بيدها جهازاً يشبه المايكروفون وراحت تحركه بقوةٍ على بطني، كُنت أراقب شاشة السونار التلفزيونية السوداء، وأنسجة بيضاء تتحرك أمامي.. قالت لي وهي تضغط بالجهاز على أسفل بطني: ذكريني متى كانت آخر مرة اعتدتِ فيها؟

- منذ شهرين.

قالت وهي تُشير إلى دائرة بيضاء داخل الشاشة، ها هو كيس الحمل!، يبدو كبيراً!

- وماذا يعني هذا؟
- مبروك، كيس الحمل كبير، أي إنه قد مضى وقت طويل على الحمل، انتظري سأُعطيكِ التفاصيل.

شعرتُ بأن السماء قد أمطرت فوق رأسي ماءً بارداً، وكان كتفاي يرتجفان وأنا أراقبها تحُرك الجهاز وتُمرره فوق بطني... قالت بعد لحظات من التمعن في الشاشة: عُمر الحمل ثمانية أسابيع، أي إنكِ في بدايةِ شهركِ الثالث، تاريخ ولادة الطفل سيكون في السابع من آب/ أغسطس القادم.

لم أنبس ببنت كلمة فضغطت بإصبعها على جهاز يشبه الحاسب وموصول بجهاز السونار، فارتفع صوت نبضات قلب سريعة ومُضطربة، ظننتُه قلبي، لكنها قالت: وها هو نبض الجنين!

شهقت بقوة، لم أتخيل أن يكون هذا النبض لإنسانٍ حقيقيٍ في داخلي، ضحكت الطبيبة: ما الأمر، أخفتِ؟

سألتُها: أهو بخير؟

- الحمدلله، الجنين بخير، بإمكانكِ أن تأتي في نهاية الشهر القادم لتعرفي جنس الجنين.

سألتها بدهشة: أبإمكاني أن أعرف جنسه فعلاً في نهاية الشهر؟

أمسكت بيدي وساعدتني على الجلوس وهي تمسح السائل الذي وضعته على بطني: إن كان صبياً سيتضح جنسه معنا في نهاية

الشهر القادم وإن كانت فتاة سيتوجب علينا الانتظار لشهر آخر لنتأكد من ذلك، هذا في حال كانت وضعية الجنين في اليوم الذي ستأتين به واضحة.

جلستُ على الكرسي أمامها وأنا أُعدل من هندامِ عباءتي بأصابع مرتعشة، قالت وهي تكتب: هُناك تحاليل لابُد لكِ من إجرائها من أجل سلامة الجنين في الأشهر اللاحقة وخصوصاً أنكِ كُنتِ تُعانين كسلاً في الغدة الدرقية.

سألتُها: كيف يتم الحمل رغم كُل الأسباب المانعة له والتي كُنت أعانيها؟

قالت وهي تضع أمامي ورقة طلب التحاليل: أراد الله لكِ ذلك، قدرة الله فوق الطب وفوق المعجزات، فلتحمدي الله كثيراً.

أخذت منها الورقة بعد أن شكرتها، وتوجهت إلى قسم المختبرات بخطواتِ حُبلى هذه المرة!

لا يُهين المرأة أخرى جاءت قبلها، لكن النساء اللاتي يجئن بعدها يذقنها كُل أصناف الذل وأنواعه سواء أكان مجيئهن شرعياً أم غير شرعي.

لطالما آمنت أن النساء اللاتي عبرن حياة مالك قبل معرفته بي، جئن ليتعلم منهن فقط كيف يُعاملني وكيف يُحبني وكيف يُحافظ عليّ، كل اللاتي مررن جئن ليُدرك مالك كم أنا استثنائية وفريدة.

لكن مجيء أحدٍ غيري أثناء زواجنا أو حتى بعد انفصالنا سيعني أنني كُنت أحد الدروس التي يتعلم منها مالك كيف يُحب امرأة أُخرى، وكيف يعامل امرأة أُخرى.

أن يأتي أحد بعدي يعني أنني لم أكفِ مالك، ولم أُشبع قلبه قبل أي شيء، وهذا مُهين، مُهين جداً.

دائماً ما أُفكر في كل ما نقرأه وفي الأشياء التي أورثتنا إيّاها أمهاتنا عاطفياً.. أفكر بأولئك الذين يقولون لنا أن لا كرامة بالحُب فأعجب من قدرتهم على العيش مع من يُحبونهم بلا كرامة!

كيف نُحب شركاءنا من دون أن نُحب أنفسنا؟ ومن يقدر على أن يُحب نفسه وهو يقبل أن تُهان كرامته وتُجرّح؟!

أهم ما في الحُب هو أن تُصان كرامتك، أن لا تُمس مهما حدث ومهما صار ومهما استجد.

والخيانة لا تمس الكرامة ولا تخدشها، الخيانة تطعن الكرامة في مقتل، ومن يتغاضَ عن الخيانة يقبل أن يعيش بكرامة جثة، لا روح فيها ولا نبض ولا أنفاس.

حينما نُحب في مُجتمعنا أو عندما نُقدم على علاقةِ حُب، تطرأ علينا فكرة الانفصال رغم محاولاتنا للتنصلِ من التفكيرِ فيها، لكننا عندما نُقرر الزواج، لا نُفكر عند اتخاذ القرار في إمكانية الانفصال أبداً.

في موروثاتنا النفسية الشرقية، الزواج بالنسبةِ إلى المرأة علاقة سرمدية لا تنتهي ولا تتغير رغم الوجعِ والكُره والخيبة والخيانة والأذى والخُذلان، علاقة لا نُفكر في إمكانية انتهائها ولا نُفكر أبداً فيما بعد الانتهاء، لذا حينما تنتهي علاقة زواج بالطلاق، يُعربد الرجل وتنتهي المرأة.

أظنُ أنني لم أُفكر جدياً في أن أنفصل عن مالك، مع كل ليالي القهر والحُزن والاختناق، ولم أُدرك يوماً أنني لستُ قادرة على أن استمر معه إلا بعدما أقبلت عليّ ليالي الوحدة.

حينما تحتضن الوحدة امرأة متزوجة، هذا يعني أن علاقة الزواج انتهت.. انهارت، ماتت، قُتلت، استشهدت.......... المهم أنها لم تَعُد حية!

أستمع في ليالي وحدتي إلى مقطوعة شهرزاد، وأُفكر في أيِّ ألم أنثوي هذا الذي تمكن من اغتصابِ كورساكوف ليتمكن الرجُل من أن يُجسد الوحدة والإحباط في مقطوعة موسيقية أسماها على جارية استنزفت أعصابها ومشاعرها لتبقي سيدها القاتل والمُختل عاطفياً، مشدوهاً بألفِ ليلةٍ وليلة.

ليتها تُبعث شهرزاد لتُخبرنا، أفعلت كُل ما فعلته لأجلِ الحُب أم خوفاً من أن تُجتث حياتها منها؟! ليت شهرزاد التي كانت آلهة في كيد النساء أن تُخبرنا أعاشت ليالي الخوف تلك بكرامة أم أنها تشبثت بالحياة بكرامةٍ ميتة؟!

أنا أرفض البحث خلف مالك، أكره التلصص في الحُب وأكره التجسس عليه.. مؤشرات كثيرة تُشير إلى أنه يعبث بكرامتي، لكنني أشيح بقلبي وعقلي بعيداً عن كُل الإشارات، كيلا أتأكد من عبث مالك وحتى لا أرى بعيني كرامتي مسجاة تحتضر فأُجبر على الاختيار بين أمرين، إما أن أنقذها بكيّها والرحيل بها بعيداً عنه، وإما أن أرقبها تموت معه فأكمل ما تبقى لنا من عُمر بدونِ كرامة.

لَكَم هو قاسٍ هذا الحُب، لَكَم هو جائر!

دائماً ما كُنت أحلم بقصة حُبٍ فريدة، أردتُ زواجاً لا ينسى حكايته الناس فيحكونه لأحفادهم يوماً.

أردتُ أن أكون كـ بوكاهنتس، الهندية الحمراء التي آثرت أن تتزوج إنجليزياً مُتحضراً وأن تتخلى عن عائلتها في سبيل الحُب ومن أجله، وبرُغم أن نهاية بوكاهنتس لم تكُن سعيدة حيثُ ماتت في بدايةِ عشرينياتها، إلا أنني أكاد أجزم أن حياتها القصيرة مع من أحبت كانت أجمل فتراتِ حياتها.

عائلتي لم تتقبل فكرة أن أتزوج رجُلاً كمالك، كان رفض أمي قاطعاً في بداية مشروع ارتباطنا، كان مالك رجُلاً معروفاً ومشهوراً في وسائل التواصل الاجتماعي، يُتابعه الناس ويحبونه لآرائه الجريئة والصادمة، رُبما لهذا لم ترغب أمي بأن أتزوجه.. خافت أمي أن تحرقني نيران شهرته تلك، انشغاله، عالمه الواسع الأفق بلا نهاية، الشياطين من الرجال والنساء الذين واللاتي يبحثون عنه ويسعون إليه.. كانت أُمي تعرف معنى الزواج وتفهم كيف تسير

الحياة الزوجية، وما هي المشاكل والصعوبات والاختبارات التي يتعرض لها الزوجان وبيت الزوجية.

كانت لأمي نظرتها الحكيمة ورأيها السديد، لكنني لم أفهم شيئاً مما أرادت أن تحميني منه وما أرادت أن تُفهمني إياه، لم أكُن إلا فتاة مفطورة الفؤاد بعدما جرحها الموت، فتاة تحلم بعدما كاد أن يقتلها الحُزن أن تعيش حكاية تنتهي فيها من أحزانها ومن ظلال الموت التي تُحيط بها، فتاة سعت لنسج حكاية رقيقة وصاخبة في الوقت نفسه، حكاية جياشة تكون فيها بوكاهنتس ويُصبح فيها مالك كجون رولف.

وتزوجتُ مالك، لكن حكايتنا لم تشبه حكاية بوكاهنتس إلا في صعوبتها وتعقيدها.. لم أعش أجمل فترات حياتي مع مالك، والحق أنني لم أعش معه أسوأها، لكن ماعشته معه لا يشبه الحياة التي تخيلتها، ولا حتى في أبعد صورها.

في الزواج، يمر الزوجان باختبارات عديدة، في اختبارات الزواج يُقاس فيها مدى صبرك، ونضجك، ووفائك وحُبك.

لا أعرف إن كنا نخضع فعلاً لأصعب اختبارات حياتنا في الزواج أم في الأمومة!، أُفكر في هذا دائماً، وأظن أن اختبارات الحياة الزوجية أكثر صعوبة من اختبارات الأمومة والأبوة؛ ففي الأبوة والأمومة نُجبر على تقديم التضحيات، وعلى أن نتنازل عن

معظمِ الأشياء مقابل مصلحة أطفالنا وسعادتهم، لكننا لا نُجبر على ذلك في الزواج.

في الزواج كُل شيء اختياري، حتى لو هيئ إلينا أحياناً أننا مضطرون ومجبورون على تقديم التنازلات.. في الحقيقة لا أحد في الزواج مضطر على تقديم شيء.

كُل ما نقدمه لشركائنا نقدمه باختيارنا، لا مُضطرين ولا مجبرين، وهذا ما يجعل تلك الاختبارات في غاية الصعوبة، لأن كل ما نقدمه مرهون بحُبنا وبمدى رغبتنا في أن يستمر هذا الزواج.

مررتُ أنا ومالك في اختبارات عديدة خلال سنوات زواجنا القصيرة نسبياً، أُفكر دائماً إن كُنا قد مررنا بكُل هذا خلال ثلاث سنواتٍ من الزواج فقط، وما الذي قد نواجهه بعد عشرين عاماً منه؟! كم تبقى لنا من الخيبة كي نمر بها ونعيشها في سنواتنا القادمة معاً؟!

دائماً ما كان يستوقفني أحد أبيات المتنبي التي رثى فيها حبيبته خولة شقيقة سيف الدولة الحمداني، كان يهزني الشطر الذي يصف بها دمعه فيئن بلوعة « شَرِقْتُ بالدّمعِ حتى كادَ يشرَقُ بي»، لا أظنُ أنّ مرثية مسّتني كمرثية خولة هذه، كُنت أشعر بحرقة المتنبي في كُلِ مرة أقرأ فيها هذا الرثاء، فيسيل دمعي تأثراً وتعاطفاً مع شاعرٍ فقد حبيبته في غيابه قبل أكثر من ألف عام وعلى حكاية حُب لم يكتب لها الله أن تكتمل.

أشعر أحياناً بأن المُتنبي كان ليُحبني لو أنني عاصرته!، شيءٌ ما يربطني بهذا الرجُل، العبقري المغرور وذو النفس العزيزة.

لكنني لستُ في زمان المُتنبي، أنا في زمنِ مالك، امرأة لمالك وأم لطفلِ مالك!

وصل مالك بعد يومين من معرفتي بحملي، كانت حقائب الرحيل قد فُضت، وعادت أمتعة الحرية إلى أماكنها وكأنها لم تُكن ستُغادر.

دلف مالك بوجه مُقتضب، أدار مفتاح الشقة ودخل بخطواتٍ مُتثاقلة.. كُنت مضطجعة على الأريكة أتصفحُ كتاباً عن التربية والأمومة، لم أكُن أعرف كيف سأستقبل مالك بعد كُل ما تلفظتُ به قبل سفره وبعد كُل ما قاله في وجهي، لذا بقيتُ مضطجعة في مكاني من دون أن أتحرك، رفعتُ رأسي إليه وهو يخطو بعينين باردتين وعاتبتين، جلس على الأريكة المقابلة وقال: مساء الخير!

أجبت وبدونِ أن أتحرك: الحمدلله على السلامة!

- الله يسلمك، كيف حالك؟
- بخير، كيف كانت رحلتك؟
- الحمدلله.

أجبت بغير اكتراث وعدتُ لأقرأ في كتابي: الحمدلله.

سألني ببرود: منذ مُتى وأنتِ تقرئين عن الأمومة والتربية؟

- وجدته مع المجموعة التي ابتعتها من معرض الكتاب، يبدو أن البائع قد وضعه مع المجموعة عن طريق الخطأ.

- ولماذا تقرئينه؟

- حُب للمعرفة، ألديك مشكلة في هذا؟

- لا، لكنني استغربت الأمر لا أقل ولا أكثر.

قُمت من مكاني، قُلت له: أُتريد أن تأكل شيئاً؟

- لا شكراً، تناولت عشائي على الطائرة.

مسك بذراعي عندما مررتُ منه، التفتُ إليه فابتسم: السلام عليكم!

ابتسمت: وعليكم السلام!

- الصلح خير!

هززتُ رأسي مؤيدة: الصلح خير!

قام من مكانه وقبل رأسي: أجلسي أنتِ، أنا من سيعد لك العشاء.

سألته بسخرية: منذ متى وأنت تعد العشاء لي؟

ابتسم: عشاء المصالحة، ألم نقل بأن الصلح خير؟

- أترشيني بالعشاء؟

- شيء من هذا القبيل!

ابتسمت، فاسترسل: سأستحم أولاً وأعد لك عشاءً استثنائياً، لا تأكلي شيئاً حتى أخرج.

جلست وأنا أشاهده يسحب حقيبة سفره إلى داخل الغرفة، كُنت أفكر كم يستطيع أن يطفئني مالك فجأة؟!، كيف يُرضيني بسلامٍ واجتهاد بسيط؟!، كُنت أُفكر، أقاسية هي كُل شجارات الأزواج وسخيفة هي كُل مصالحاتهم؟!

رُبما، إنه الزواج!

أقتربُ من بداية شهري الرابع في الحمل، مضى شهر كامل على عودة مالك من سفره، حاولت أن أتجرأ وأن أخبره بأمر الكائن القادم لكنني لم أقدر على أن أفاتحه بذلك!

الحق أنني لم أُخبر أحداً حتى الآن، لم أُخبر أمي التي لطالما تمنت يوماً أزف لها فيه خبر نُضجي.. لا أعرف لماذا لم أقدر على أن أفضي الأمر لأحد وكأنني أشعر بالعارِ من طفلٍ لم يُخطط له وإن كان شرعياً وخُلق بصورةٍ شرعية!

كُنت في المطبخ مع مالك بينما كان يُعد الشاي، رفعت بعض الأطباق لأضعها فوق رفٍ علوي، لم أشعر إلا ويده تربت بطني الذي انكشف أسفله بينما كُنت أمد يدي إلى الأعلى، قال بسخرية: حان الوقت لأن تزاولي التمارين في النادي الرياضي، فعلامات الترهّل بدأت تظهر على بطنك.

قُلت وأنا أعيد ترتيب قميصي: ألا تُعجبك البطون البارزة؟

- ومن يُعجب بها؟!

- ألن تُحبني لو حملت لك طفلاً يوماً؟
- عندما تكونين حاملاً سيصبح الأمر مُختلفاً.

جلستُ إلى طاولة الطعام، فمد إليّ بكوبِ الشاي الذي سكبه، هززت رأسي: لا شكراً.

قال بعدما ارتشف منه: يبدو أنكِ تعافيتِ من الشاي تماماً، لم تشربيه منذ مدة.

ابتسمت: مُلاحظة جيدة!

- ظننتُكِ مخلوقة من شاي، لماذا أقلعتِ عنه فجأة؟
- أُحاول أن أحافظ على صحتي.
- فجأة؟
- فجأة!

قرّب كوب الشاي من شفتيه ومن ثم أبعده من دون أن يرتشف منه وكأن شيئاً أضاء دماغه، ضاقت حدقتاه وهو يتأملني بريبة، قال: ما الأمر يا ياسمينة؟

- أي أمر؟
- لا أعرف تبدين مُختلفة، تغيرت عاداتُكِ فجأة، أقلعتِ عن الشاي الذي تعشقينه، أهملتِ تغيير لون شعرك الذي ظهرت جذوره بلونها الحقيقي، حتى سجائري باتت تزعجك، تركتِ عاداتكِ كلها وكأنكِ امرأة أُخرى!

اتسعت عيناه حتى آخرهما، وضع كوبه على الطاولة بقوة، اقترب مني وهو يُشير إلي: مهلاً! مهلاً!، وزنك في ازدياد!، بطنك!، بطنك!

كُنت أراقب اضطرابه حينما وصل أخيراً إلى الاستنتاج وأنا أفكر كيف ستكون ردة فعله؛ قال وهو يُشير إلى بطني: لستِ حاملاً!، أليس كذلك؟

أجبته: صباح الخير!

- ما معنى هذا؟!
- استغرقت وقتاً طويلاً لتُلاحظ.
- أأنتِ حامل حقاً؟!
- يبدو ذلك.
- أتشكين في ذلك أم أنكِ حامل فعلاً؟
- أنا في نهاية شهري الرابع، لا مجال للشك في الأمر.
- في شهركِ الرابع!، أيعني هذا أنك ستنجبين بعد خمسة أشهر؟
- بإذن الله.

صاح: ولماذا لم تُخبريني بذلك؟

- ولماذا لم تُلاحظ؟

كُنت أراقب دهشته وفزعه وارتباكه أمامي وأنا أُفكر، كيف ألومه

على عدم ملاحظة بروز بطني البسيط وقد حملت طفلاً في أحشائي لثلاثة أشهر كاملة من دون أن ألاحظه أو حتى أن أشعر به!

سحب مالك الكرسي المواجه لي وجلس وهو يتنفس بسرعة، شبك أصابع يده أمام وجهه وقال: أتريدين أن تقنعيني الآن بأنكِ حامل في شهركِ الرابع؟

- أنا لا أُريد إقناعك، أنت من وصل أخيراً إلى هذه الحقيقة.
- ما الذي يعنيه هذا؟!، أحامل أنتِ أم لا؟
- لماذا أصبحت بطيء الفهم فجأة يا مالك؟، أخبرتُك بأنني في الشهر الرابع من الحمل.
- ولماذا لم تُخبريني طوال هذه المدة؟
- اكتشفت الأمر أثناء سفرك الشهر الماضي، بعدها لم تسنح لي فرصة لأُخبرك عن الأمر.
- ومتى كانت ستحين هذه الفرصة؟!، أستُنجبين طفلاً بعد خمسة أشهر بدون معرفتي!
- كُنت سأخبرك بالتأكيد لكنني لم أكن أعرف كيف سأخبرك.
- كانت لديك مشاكل تؤجل الإنجاب، وعلى حد علمي لم تخضعي لأي علاج، فكيف حدث هذا؟!
- أراد الله له أن يكون، فكان!

كان مالك يتأملني بصمت وفي عينيه مشاعر كثيرة، قُلت له: توقعت أنك ستنزعج! ربما لهذا لم أُخبرك.

عقد حاجبيه مُستنكراً: ولماذا أنزعج؟، أنا مُتفاجئ فقط، من حقي أن أتفاجأ، من حقي أن أفزع حينما أعرف فجأة أنني سأُصبح أباً بعد خمسة أشهر فقط!، لستُ مُنزعجاً يا ياسمينة، هو طفلي فكيف أنزعج؟

ابتسمت من دونِ أن أعلق، فقال مُداعباً ليُداري ارتباكه: أمُتأكدة أنتِ من أنه طفلي؟

ضحكت: لستُ واثقة من الأمر تماماً!

ضحك ومسح عينيه بيديه وكأنه يحاول أن يُجبر نفسه على التصديق، فقال وهو يهز رأسه: أنا مصدوم جداً، كان الأمر بعيداً عن توقعاتي، لم أتخيله قريباً قطّ.

- وأنا بدوري لم أتخيله أيضاً.
- سيفرح والدايَ كثيراً، أأخبرتِ والدتك؟
- لا، آثرت أن تعرف أولاً، لم أُخبر أحداً حتى الآن.
- ولماذا تلومينني على عدم الملاحظة إن كانت أمُك لم تلاحظ أيضاً؟
- أنت زوجي، بإمكانك ملاحظة أي تغيير جسدي حتى وإن كان طفيفاً.

قام من مكانه واحتضنني وأنا جالسة: مبروك ياسمينة، لن أكذب وأقول لكِ إنني سعيد لأنني لاأزال تحت تأثير الصدمة، لكنني أعرف أنني سأكون سعيداً حينما يبصر الطفل النور.

ابتسمت، فاسترسل: أو تبصر، فقد تكون فتاة!

- لدي موعد في الغد لمعرفة جنس الجنين، أُتريد أن ترافقني؟
- حتماً!، لن أستوعب الأمر حتى الغد لكنني سأذهب معكِ قطعاً.

أشار مالك إلى ساعة يده قبل أن أرد عليه وقال: تأخرتُ كثيراً، سنكمل حديثنا حينما أعود.

قُلت: اليوم هو الأربعاء لن تعود إلا فجراً.

أطرق قليلاً وقال: سأعود قبل الثانية عشرة، فلتنتظريني.

ابتسمت: لا تتأخر.

كُنت أنظر إليه وهو يتجه إلى الباب وأنا أتمتم في نفسي: هل يُغيرك الطفل يا مالك؟

لا أدري!

زارني والدي ليلة الأمس في منامي!، رأيتهُ يحمل طفلي بين ذراعيه، كُنت أقف أمامه ببطنٍ ضخم، لكنني كُنت أشعر أن طفلي هو من ينام في حضنه، أخذ والدي يراقص طفلي بين ذراعيه وهو يُدنن بصوتٍ حنون أغنية طفولية لم أميز كلماتها، ركضتُ لأنتزع طفلي من بين أحضانه فاستيقظتُ قبل أن أصل إليه!

استيقظتُ وأنا أتصبب عرقاً، وضعت يدي على بطني وأنا ألهث، كُنت خائفة للغاية، استعذتُ بالله من الشيطان الرجيم ومن الموت الذي يأبى أن يتركني لأحيا حياتي بدون وجوده فيها، التصقتُ بظهرِ مالك النائم بجواري وأنا أرتجف، أخذت أفكاري السوداء تحوم فوق السرير وحولي لتقفز تأويلات الحلم البشعة من كُل الزوايا فضاق المكان حولي وكدتُ أختنق.

أغمضتُ عيني بقوة وأنا أصرخ في نفسي: فلتُمت أيها الموت، حان الوقت لأن تموت فعلاً!

شعرتُ أخيراً برغبة للخلاص من هذا الموت، لم يعُد في قلبي

مُتسع لهذا الحزن الذي بات يكبر ويتسع ويتضخم لأسبابٍ كثيرة أُخرى.

حان الوقت لأن أُعيد ترتيب رفوف قلبي، أن أتخلص من ملابس الموتى المعلقة بداخله، أن أطلب منهم كرماً أن يرحلوا وأن أقدم على طردهم منه إن أبوا الرحيل منه وعنه، حان الوقت لأن أكمل حياتي مع الأحياء من البشر لا مع الموتى منهم.

حان وقت الحياة، وداعاً لك أيها الموت، وداعاً أبي، وداعاً أيها الموتى!

رافقني مالك ليتعرف إلى الطفل الذي عرف عن وجوده بالأمس، بدا لي كليلة البارحة، بالدهشة نفسها وبالارتباك ذاته، كان مُتخبطاً، مُشتتاً، ضبابي المشاعر.

كُنت أفكر في طريقنا إلى المستشفى بالزواج الذي ينبغي علينا إصلاحه من أجلِ مشروع لم يكتمل بعد.. كُنت أفكر أي مشروع هذا الذي يستحق أن أمضي في حياةٍ لا أشعر بالسعادة فيها!، أي جديد هذا الذي يدفعني لأن أحطّم قلبي وأن أُكمل درباً أنهكني المسير فيه؟، بأي قدمين سأواصل سيري، وبأي عقلٍ سأكمل فيه؟

أيخلق الله النساء من طين التضحيات؟، أم إنّ الله فطرهن على التضحية حينما كتب في مكاتيبهن، وقدّر في أقدراهن أن يصبحن يوماً أمهات؟!

لكنني لا أتنازل هُنا عن شيء ما، أنا هُنا أُضحي بكل حياتي، أُضحي بكُلِّ الأشياء!، وفرقٌ شاسع ما بين التنازل والتضحية.

أيستحق الأمر التضحية؟، لا أعرف، حقاً أنا لا أعرف، لكنني أعرف بأن قوة عظمى في داخلي تدفعني للتضحية رُغماً عني.

في المستشفى كُنت حاضرة بقلبٍ يتوق لمعرفةِ من يجاوره، لمعرفةِ من يسكُن في داخلي، من يعيش بي، وكان مالك حاضراً بفضولٍ ممزوج بالدهشة وبعدمِ الاستيعاب.. كُنا حاضرين بالخوف والترقب والفضول وربما ببعض الشك والاشتياق.

كان مالك يواجه الشاشة المُعلقة على جدار غرفة الأشعة، يقف أمامها واضعاً يديه على جانبي خصره وكأنه يتحدّاها أن تُقنعه أو أن تُريه شيئاً مستحيلاً.

مررت الطبيبة الجهاز على بطني، ليظهر مخلوق صغير بأربعةِ أطراف كاملة، وبرأسٍ وجسد حقيقيين، يسبح في ماء رحمي بخفةِ من اعتاد الأمر وتعايش معه.

أشارت الطبيبة بإصبعها على الشاشة الصغيرة المجاورة إلي وقالت: «ها هو عموده الفقري، يبدو كاملاً وسليماً، ها هي يداه، قدماه، ورأسه»، أشارت بإصبعها لما بين رجليه قائلة بابتسامة: وها هو عضوه التناسلي، ها هو رجلكما الصغير.

سألتها بدهشة: أصبي هو؟

- نعم، هو ذكر.

سألها مالك: أمن المؤكد أنه صبي؟

- بما لا يدعو للشك!

أشار مالك بإصبعه إلى الشاشة الكبيرة أمامه وقال بصوتٍ مُرتبك: يبدو غريباً، أين عيناه؟

ضحكت الطبيبة: هذه أشعة، وليست كاميرا مدسوسة في رحم زوجتك، بإمكانكم إجراء الأشعة الرباعية في الشهر السابع ستبدو ملامح الجنين واضحة نوعاً ما.

سألتها وأنا أجلس: أكل شيء على ما يرام؟

- كل شيء يبدو طبيعياً، لا تقلقي.

غادرت أنا ومالك المستشفى وقد أمسك يدي بيساره، وبيمينه حمل كيساً مملوءاً بالأدوية والفيتامينات، سألتهُ ونحن في طريق العودة إلى البيت: كيف تشعر الآن؟

التفت إلي لثوانٍ وعاد ينظر إلى الطريق أمامه، هز كتفيه بحيرة قائلاً: لا أعرف!، أشعر بالدوار، وكأنني في حُلم غريب.

- شعرتُ بذلك أيضاً حينما عرفت بأمر الحمل.

استرسل وكأن ما قُلته قد شجعه على البوح أكثر: لا تظني بأنني غير سعيد، كُل ما في الأمر أنني غير قادر على الاستيعاب بعد، لكنني حينما رأيت الجنين على الشاشة وهو يتحرك!، لا أعرف!

صمت قليلاً ووضع يده اليمنى على قلبه وقال وهو يضغط على صدره: لا أعرف، لكنني شعرتُ بقلبي يخفق، شعرتُ بشيء لا أستطيع تفسيره، أنتِ تفهمين ما أقصد، أليس كذلك؟

- نعم، أفهم ذلك.

التفت مُجدداً وكأنه يحاول التأكد من ملامح وجهي بأنني لم أغضب مما قاله: أحتاجُ إلى بعض الوقت للاستيعاب فقط.

- أمامك خمسة أشهر للاستيعاب، لا تقلق.

هز رأسه موافقاً، فقلت: هلا أوصلتني إلى بيت أمي؟، حان الوقت لأن أُفرحها بالخبر.

سلك مالك الطريق باتجاهِ بيت أُمي الذي كُنت أعتزم العودة إليه قبل شهرٍ من الآن.

أخذتُ أفكر وأنا أتأمل الأشجار اليابسة في طريقنا إلى بيتها، هل سيُصلح الطفل ما أفسدته ألسنتنا وتصرفاتنا بعضنا تجاه بعض في السنتين الأخيرتين، أقادرُ هو أن يمحو آثار كُل الخيبة التي شوهت العلاقة التي كانت بيننا؟ أم أعود إلى بيت أمي قريباً وأنا أحمل بين يدي صغيراً حزيناً، يتيم الأب رغم وجوده.

أيعيش طفلي بلا أب مثلما عشت بدون أب؟

كلا... لن أورث طفلي اليتم ومهما كان الثمن، لن يرث طفلي اليتم!

كانت فرحة أمي بنبأ حملي بمقدار خوفها وقلقها وحُزنها عليَّ!

كُنت مُتأكدة من أنها ستفرح كثيراً، كأي جدة تستقبل حفيدها الأول، لكنني لم أظن أنها ستسعد إلى الدرجة التي رأيتها فيها.

رأيت يومذاك، كم كانت والدتي شقية بسببي، كان من الواضح أن عيشي بين الأموات قد سبب لها الوهن والحزن والشقاء، لكنني لم أرَ ذلك قبلاً، رأيته فقط حينما نفضت حُزنها بعيداً باستقبالها لخبر حملي وكأنها عرفت بقلب الأم أن الطفل الجديد سينُعش قلبي مجدداً وسينتشلني من زنزانة الموت الحالكة التي لطالما سُجنت فيها.

مرت أشهر الحمل بطيئة، متوجسة وقلقة رغم محاولاتي للهدوء والاستقرار والطمأنينة، كُنت أقرأ النظريات في الكُتب الطبية وكُتب التربية والطفولة والأمومة، وأحاول أن أطبقها على نفسي وعلى طفلٍ لم يُخلق بعد.

كنت أحاول أن أعوض الثلاثة أشهر الأولى التي لم أشعر خلالها بجنيني، كان ضميري يئن من عدم شعوري به.

شعرتُ وكأنني قد أسأت لطفلي بعدم ملاحظتي إياه وبعدم إحساسي به، شعرتُ وكأنني لا أستحقه وبأنني لن أصبح يوماً أماً حقيقية كبقية الأمهات.

لذا انعكفتُ بقية أشهر الحمل أقرأ وأبحث وأستعد للمنعطف الأهم في حياتي.

كان الوقت بطيئاً ومُقلقاً ومؤلماً ومُملاً، كُنت أفكر طوال الوقت، كيف أنّ الأمهات يعدن تجربة الحمل هذه برغبة وتوق؟

كيف يسعين لأن تمتلأ أجسادهن، لأن توهن عظامهن وتئنُّ ظهورهن وأقدامهن؟!، كيف يسعين لكل هذا الثقل والأرق والألم؟

لم أكُن أعرف حينذاك، أن الثمن في الحقيقة هو أغلى ثمن!

لم أرغب بالحصول على شيء بعد وفاة والدي مثلما رغبت بالحصول على بيانو!

ليس لأنني أهوى الموسيقى، وليس لأنني تزوجتُ رجلاً يتقنها ويمارسها، بل لأن في الموسيقى شيئاً مني، في كُل مفتاحٍ من مفاتيحها قصة لي وحكاية عني.

لذا اخترنا اليونان لنقضي فيها شهر عسلنا، ذهبنا حيثُ ياني وفانجليس، حيثُ الموسيقى والفلاسفة والحضارة.

قضينا الأسابيع الأربعة في تعلمِ أساسيات العزف على البيانو، ثملنا بفعلِ الموسيقى وأحببنا بعضنا أكثر، أو «شعرنا بالحُب» بفعلِ الموسيقى أيضاً.

أردتُ استكمال ما تعلمته في أثينا بعدما عدتُ إلى الوطن، ظللتُ أطلب من مالك في كُل عيد ميلاد لي أن يُبهجني ببيانو، لكن البيانو لم يجئ، فنسيته بعدما مللت الانتظار.

استيقظتُ بعد عدةِ أيام من معرفةِ مالك بحملي لأجد grand

piano كبيراً يحتل جزءاً كبيراً من الطابق السفلي، كان مالك يقف بجوارهِ بوجهٍ سعيد، رقص بأصابعه على مفاتيح البيانو: ما رأيك؟

شهقت بدهشة: ما هذا؟

- بيانو!، ألم ترغبي ببيانو؟
- أخذتُ أتحسس البيانو حتى كدتُ أحتضنه: منذ ثلاث سنوات وأنا ألح عليك لابتياع واحد حتى نسيت الأمر، ما الذي ذكرك به اليوم؟
- لم أنس الأمر، أجلته بانتظارِ الوقت المناسب، يحتاج الطفل لأن يسمع موسيقى الآن.

ابتسمت: ابتعته من أجل الطفل إذاً؟

- بل من أجلكما، الحامل والمحمول!

ابتسمت وأنا أدور بأصابعي على مفاتيح البيانو، شعرتُ بنغماته تنبض في قلبي.

قال مالك وهو مُتكئ بيده على سطح البيانو: ما رأيك أن نسمي ابنتنا ناي؟

- لكنه صبي وليس فتاة!
- أعرف، لكنني قرأت أن السونار في هذا الوقت من الحمل ليس دقيقاً دائماً في تحديد جنس الجنين.
- ترغب بفتاةٍ إذاً!

أشار بيديه: لا لا، لا فرق عندي في جنس الجنين، لكنني فكرت في الاسم.

ابتسمت: حسناً، إذا رزقنا بفتاة فسنسميها ناي!

- واذا كان صبياً؟

ارتفع صوت هاتف مالك، نظر إلى الشاشة وقال: حبيبتي لدي موعد مهم، تأخرت كثيراً، سنكمل حديثنا لاحقاً.

انحنى مُقبلاً وجنتي وخرج مسرعاً وهو يُجيب على هاتفه، أخذتُ أتأمل مالك أثناء خروجه السريع وأنا أفكر فيما لو كان الجنين صبياً حقاً.

- نهار! سيكون نهار!

من يُريد الاستماع إلى صوتِ رسولِ الموت؟، من يُريد أن يُنصت موتاً؟

عشتُ سنوات طويلة، وأنا لا أنطق إلا الموت، لم تُبارح الحياة حنجرتي، تعلقتِ الحياة فيها ولم يصدر منها إلا موت بعد موتٍ بعد موتْ، لذا لم أتكلم ولا أتكلم في حياتي كثيراً، لذا أعيش الحياة باقتضاب، بكلمات معدودة وحروفٍ قليلةٍ، مُتثاقلة و محسوبة.

حينما جاء مالك بالبيانو، أول ما حاولت أن أتعلمه عليه هي مقطوعة conquest paradise للعبقري فانجليس، تلك المقطوعة التي تهزني، رُبما لأنها توحي إلي دوماً بحكايةِ موت.

حاولت أن أسترجع الدروس الأولية التي تعلمتها في أثينا، حاولتُ أن أُلملم المفاتيح بأصابعي.. دو، ري، مي.. فا، سول.. لا... سي!، لكن أصابعي كانت ثقيلة، وكأنها باتت تخشى أن تعزف موتاً وكأنها تحن إلى لحنِ حياة.

لكنني لا أعرف ألحاناً للحياة ولا ألحاناً في الحياة، كل

المقطوعات الموسيقية التي أجد نفسي فيها ليست إلا مرثيات موسيقية، بألحانٍ ثكلى، مُلتاعة، موجوعة ودامعة.

حتى سيمفونية شهرزاد لريمسكي كورساكوف، السيمفونية التي أُحبها كثيراً، والتي تُرافقني طوال اليوم، ليست إلا مرثية حُب وحياة. أنصتُ لتأبين شهرزاد في نوتاتها الموسيقية وأنا أفكر: ألم يكُن عبقرياً ككورساكوف قادراً على أن يخلق سيمفونية أكثر حياة ونبضاً مما خلق في شهرزاد؟!، تهزني هيبة العزاء أمامها، فتصمتُ أفكاري وأطأطئ رأسي في لحظة صمتٍ وحدادٍ.

فكرتُ أن أهرب من حُمى الموت والموسيقى إلى شيءٍ جديد، خطر لي أن أجتمع مع صديقاتِ الطفولة اللاتي كان قد مضى على التقائي بهن أكثر من عام كامل.

كُنا ستّ فتيات، تجمعنا صداقة طويلة تمتدُ حتى مقاعد الدراسة الابتدائية، ستّ فتيات يعرفن بعضهن بعضاً جيداً، يعرفن ملامحهن قبل مرحلة البلوغ وتقويم الأسنان، والعلاجات الجلدية والليزر ومستحضرات التجميل بل وعمليات التجميل كذلك، كُنا نعرف بعضنا بعضاً من قبل أن تُعمينا قصص الحُب ويصدمنا الزواج وتُنضجنا التجارب!

ابتعدتُ عن صديقاتي في الفترة الأخيرة كثيراً، تراجعتُ إلى الخلفِ حتى أصبحت المسافة التي تفصل بيني وبينهن كبيرة، كانت الأحاديث التي تجمعنا في كُل لقاء تزيد وجعي وجعاً.

لكُلِ متزوجة منهن مع زوجها حكاية بؤس، ولكُل عاشقة منهن مع معشوقها حكاية يأس، وكان الهم يجمعهن ويزيد همي هماً، فآثرتُ أن أبتعدَ بحُزني وهمي، بعيداً عن صديقة تشك بزوجها وأخرى ضبطت زوجها مُتلبساً وثالثة تعيش حكاية حُبٍ مع رجُل متزوج.

قمتُ بإرسال رسالة نصية جماعية لهن، دعوتهن على العشاء في أحد المطاعم التي كُنا نجتمع فيها لنتشارك الهم، جاءتني ردودهن ما بين مُرحبة ومُتفاجئة، المهم أنهن وافقن وبالإجماع على اللقاء.

أخذتُ أفكر بعدما قرأت ردودهن، كيف سألتقيهنّ بعد عامٍ كامل من القطيعة؟ هل تغيرن أثناء هذا العام؟ أم قد أكون أنا من تغيرت؟

أخذتُ أفكر في الدافع الحقيقي الخفي داخل نفسي، الذي دعاني لدعوتهن، أهو شوقٌ للطفولة التي جمعتنا؟ أم هربٌ من ملل الانتظار الذي أعيشه كل يوم أثناء حملي؟ أو ربما لأنني أردت أن يعرفن بأنني سأصبح بشكلٍ من الأشكال شبيهة بمعظمهن، بالحكاية البائسة نفسها، بزواج بارد وطفل عالق بين أمٍ تعيسة وأبٍ غارق في حياته الخاصة بعيداً عنها وربما بعيداً عن طفله القادم أيضاً!

جئن كما غبن عني، أو جئن كما غبت عنهن، بحكاياتهن

وأحزانهن وتوجساتهن وأحلامهن التي لم تتغير، بدا لي أنني وحدي من تغيرت، جئتُ بجسدٍ ممتلىء بكائنٍ آخر، وبروحٍ ترتعش ترقباً وتخوفاً من مستقبلٍ لن يُشبه الحاضر هذه المرة.

حينما أخبرتهن بنبأ حملي، تشابهت ردود أفعالهن، مُباركة، مؤازرة ومُحذرة من حياة يشغلها الأطفال!

اتفقن جميعهن على أن وجود طفل جديد سيدخلني دوامة إرهاق وتعبٍ لن تنتهي إلا بزواجه ، إلا أنهن أكدن لي وبشكلٍ قاطع أن وجود طفل صغير سيقوم بتقويةِ أواصر علاقتي بمالك، ولا أدري حقاً لماذا تشكو معظم الأمهات من المتزوجات من برودة علاقاتهن بأزواجهن إن كان إنجاب الأطفال سيجعل الزوجين أكثر ارتباطاً بعضهما ببعض!

مرتُ الأيام ببطءٍ شديد، شعرتُ فيها بأنني في أجمل أيامي مع مالك، كان قريباً منّي مثلما كان طفله في داخلي، كان حنوناً، رقيقاً، سخياً أكثر من أي وقتٍ مضى، فعشتُ معه بضعة أشهرٍ من حماسٍ وحُب واستقرار.

أحببتُ ومالك الجنين كثيراً مع أننا لم نكن مُستعدين ولا متوقعين حضوره.. بُث ذلك الجنين في رحمي بلا تخطيط، فبُث حُبه في قلوبنا بلا تخطيط أيضاً.

لا أعرف ولا أفهم كيف خلقنا الله سبحانه وتعالى، لكن الله

عظيم في كُل ما خلقه، عظيم هو في خلق أجسامنا، وعظيم هو في خلق مشاعرنا وفي خلق الفطرة فينا.

الفطرة التي تجعلنا نُحب إنساناً لم نره لمُجردِ أنه خُلق فينا ومنا، تجعلنا نخاف عليه ونتوق إليه ونكون على استعدادٍ لأن نُضحي بكُل ما نملك في الحياةِ من أجل أن يصلَ سليماً وكاملاً، وأن يحيا حياته فِرحاً وسعيداً.

كُنت في شهري التاسع وعلى مشارفِ الانتهاء من الرحلة القصيرة/ الطويلة.. كُنت أنتظر «نهار» بكُل ما فيني، أعددتُ غرفته الخاصة، ابتعتُ له ومن أجله كُل ما صادفني من ملابس زرقاء وبيضاء، سهرتُ ليالي طويلة وأنا أتبضع إلكترونياً من شتى أنحاء العالم له، جلبت لهُ كل ما استطعت وكُل ما تمكنت من الوصول إليه، كُنت على استعداد لمجيئه، ولاستقبالِ الحياة والفرح بمعيته.

في تلك الليلة، في ليلة مولد النهار، كُنت أقضي بضعة أيام في منزلِ أمي، كُنت ثقيلة للغاية، مُتعبة، وفي حالةِ تأهب وانتظار، يومها وجدتُ وأنا أقلب في ملابس طفلي التي نقلتها معي إلى منزل أمي حيثُ كُنت أعتزم أن أقضي الشهر الأول من حياته عندها، أنني قد نسيت الملابس التي كان من المفترض أن يستقبل بها نهار ضيوفه حينما يولد وعندما يجيئون لزيارته، لا أعرف كيف نسيتها في زحمة الأشياء، اتصلتُ بمالك كي يحضرها إلا أنه لم يُجب على مكالماتي،

اقترحت أمي أن أذهب بمعية السائق لإحضار ما ينقصني من بيتي مادمُت قادرة على الذهاب.

حاولت الاتصال بمالك عدة مرات وأنا في طريقي إلى المنزل، لكنه لم يجبني، وبقي هاتفه صامتاً، توقعت أن يكون نائماً عندما وجدت سيارته مركونة أمام باب المنزل.

فتحتُ الباب بمفتاحي كي لا أزعجه، علقتُ عباءتي وتأكدتُ من جمال هندامي قبل أن أصعد إلى الأعلى وأوقظ مالك.

لكن مالكاً لم يكُن نائماً في الأعلى، استوقفني صوته وهو يضحك بصوتٍ عال خلف باب المجلس المغلق، كان يتحدث مع فتاة ناداها بـ«حبيبتي»، سرت القشعريرة في جسدي وأنا أسمع زوجي يُنادي امرأة سواي بحبيبته!، ظننتُه يتحدث في الهاتف، وضعتُ أذني على الباب ليصدمني صوت امرأة بجواره.

لا أعرف ماذا قالت، بل لا أذكر ماذا قالت، لكنني أُدرك وأعرف وأذكر جيداً أن امرأة أُخرى كانت مع زوجي في بيتي، امرأة بصوتٍ مُتصنع وبلهجةٍ بدت لي رخيصة للغاية.

نظرتُ إلى يدي اللتين كانتا ترتعشان كيدَيْ امرأة عارية في عاصفة ثلجية، بدأت أسناني تصطكُ بعضها ببعض من هولِ المفاجأة، لم أكُن في وضعٍ يسمح لي بالمباغته، الحق أنه مالك من باغتني بمفاجئته تلك، ولم يكُن لأي ردة فعلٍ أو حتى فعلٍ قد يصدر

مني أي تأثير، دخولي عليهما لم يكُن ليجعلني المُنتصرة، لم يكُن ليخفف من وطأة صدمتي، ولا من قهرِ كرامتي، ولا من فداحةِ جرم مالك.

دخولي عليهما لم يكُن ليمحو الحادثة، لن يُعيدنا إلى الوراء، لن يخفف عني ما حدث، ولن يجعل مالكاً يعود كما كان في عيني «مالك»!

فكرتُ في لحظة واحدة، أن أفتح الباب لأجلد مالكاً برؤيتي له عاري الأخلاق.. فكرت أن أفتحه حتى لا أنسى أبداً هذا المنظر وحتى لا أغفر يوماً.. فكرتُ أن أفتحه لأخرج من ذلك البيت بلا عودة أبداً، لكنني لم أرد أن أمنح ساقطة تُشارك امرأة زوجها هذه النشوة، لم أرد أن أمنحها شرف أو عهر إيذائي، أردتُ أن ألملم ما تبقى لي من كرامة وأن أخرج من ذلك البيت فقط، ارتديت عباءتي، طلبت من السائق الذي لم يبتعد كثيراً أن يعود بالسيارة إلى منزلي بل منزل مالك، ألقيت نظرة أخيرة على هندامي المُحبط وخرجت أجر أذيال المهانة!

ركبتُ السيارة بذهنٍ مُعلق وعالق، وكأنني أسير نائمة!،
لكن ما رأيته لم يكُن يُشبه الحلم ولا حتى يُشبه الكابوس، الوجع
الذي اعتصر قلبي لم يُكن عادياً قطّ ولم يكُن متوقعاً يوماً رغم كُل
الإشارات.

لم أتوقع يوماً أن أراه بعيني وأن أسمعه بأذني، وأن أكون قريبة
منه إلى هذا الحد، بل لم أتوقع يوماً أن أتأكد من أمرٍ كهذا، توقعتُ
أن أعيش طوال زواجي بين ألم الإشارات وقسوة الشكوك، لم أتوقع
أن يُقبل اليقين عليّ بكُل هذه القسوة وبكُل هذه الدناءه وبكلِ هذا
العنف.

أخذت هاتفي ورحت أتأمل صورة مالك التي كانت تستكين
كخلفية للهاتف، تأملت ابتسامته الدافئة، وعينيه اللامعتين حُباً،
أخذتُ أتأمل مالك الذي لم يعُد مالكاً وأنا أفكر أي مالك هذا الذي
كان يُجرم في بيتنا قبل قليل؟!

أذكر بأن مالكاً قد قال لي يوماً إنّ خلف كُل جريمة حكاية، فأي
حكاية هي التي جعلت مالكاً يجُرم هذا الجرم في حقي؟!

انفجرت مياه الجنين فجأة وأنا أتأمل صورة مالك، تدفقت فجأة مني كما الأفلام التي لم أُكن أصدقها!، شهقت من روع المفاجأة، قذفتني صدمة الخيانة إلى صدمة الولادة وكأنني كُنت أفتقد الصدمات!

أخذت أتحسس المياه السائلة أسفل مقعد السيارة غير مُصدقة ما يحدث، طلبتُ من السائقِ أن يتوجه إلى المستشفى بلسانٍ يرتجف خوفاً وحُزناً ووحدةً!

دخلت طوارئ المستشفى بخطواتٍ مُتقاربة خشية أن يسقط الجنين مني فجأة!، كُنت أمسك عباءتي بيدي حرجاً من منظر المياه التي لطختها، طلبت الموظفة مني في الاستقبال هويتي وبطاقة التأمين الصحي قبل أن أدلف إلى غرفة الفحص.

جاءتني طبيبتي بوجهٍ مُبتسم مُتفائل لم يكُن يليق بمسائي، قالت لي بعدما فحصتني بأنني على مشارف الفَرج، وطلبت من الممرضات نقلي إلى قسم التنويم حيثُ سألد طفلي هذه الليلة!

لم أُكن مستعدة لتلك المواجهة، ليس في تلك الليلة ولا في تلك الحالة، لم أُكن قد أحضرتُ معي سوى حقيبة يدي، لا الحقيبة التي تحتوي ملابسي ولا تلك التي تحتوي ملابس الطفل.

فكرتُ في أن أتصل بأمي، لكنني أشفقتُ عليها كثيراً، لم أرغب أن أتشارك معها الألم تلك المرة، وقررتُ أن أواجه الموت والحياة والوجع تلك الليلة وحدي!

أرسلتُ إليها رسالة قُلت لها فيها إنني سأقضي ليلتي في بيتي مع مالك، ليجيئني ردها خجولاً ومتفهماً: « تصبحون على خير إن شاء الله، ليلة سعيدة»!

ليست ليلة سعيدة يا أُمي، ليست ليلة سعيدة... لكنه سيكون صباحاً سعيداً بمجيءِ نهار، صباحاً مُختلفاً فعلاً!

أشفقُ على الرجال كثيراً، وهب الله الإناث نعمة لم يمنحها للذكور ولن يمنحهم إياها إلا إذا شاء!

عندما تدخل المرأة مرحلة المخاض، تدخلُ من دون أية أسلحةٍ في مواجهةٍ مع الموت، فتخرج المرأة من تجربة الولادة بمشاعر جديدة وفكرٍ جديد وحياة جديدة.

تلك الساعات العصيبة التي لا يضاهيها في آلامها ولا في قسوتها ولا في حدتها شيء، تجعل المرأة حينما تنجو منها وتلفظ طفلها إلى الحياة، امرأة أكثر قوة وأكثر إيماناً بالحياة والموت.

تجربة الولادة هي أهم وأعظم دروس الحياة، هي ساعات يُلقنك الله فيها كُل أنواع الفلسفة، فتخرج منها متشرباً بالفلسفة ومُدركاً لكُل أسرارها وماورائياتها، تفهم المرأة أثناء الولادة كل ما لا يمكن للرجُلِ فهمه.

تجربة الإنجاب، لا تُشبهها في الحياة تجربة، هي حالة ما بين الموت والحياة.. في المخاض تشم المرأة رائحة الموت، وتشعر

بحركة الموتِ حولها، يتراءى لها طيفه يدور ببطءٍ وبرود وصمتٍ حاد.

لم أكن أُدرك أن للموتِ رائحة إلا بعدما دخلت في مخاضي، شممتُ رائحة الموت فمسني بيديه مُشفقاً وحانياً عليّ.

حينما يقترب الموت منا، يفزع البشر، فيقاومون الموت بكُلِ ما يمكنهم مقاومته، يخاف البشر من الموت وتفزعهم مواجهته.

ورغم عقدة الموت التي حرمتني السعادة طوال حياتي، إلا أنني لم أخف الموت حينها!، دعوت الله كثيراً أن أموت أثناء المخاض، كان كُل ما فيني يُناجي الله أن يأخذني إليه، وأن يُخلصني من تلك المواجهة القاسية.

لكن الموت أدار ظهره مُبتعداً عني بعدما صرخ نهار صرخة الحياة الأولى، شعرتُ بالموتِ يتسلل فجأة بعيداً عنا، شعرتُ بدفء الحياة يعود إلى الغرفة وإلى جسدي بعد طولِ شتاء.

ومع أنني أُدرك أن الموت سيزورني مُجدداً في يومٍ لا أعرف متى يحين، إلا أنني شعرتُ بأن مواجهتي مع الموت قد اجتثت مني الخوف منه.

شعرتُ بأن الموت قد لملم كُل المخاوف التي كانت تعتمل في نفسي، جمعها بيدٍ واحدة وخبأها في جيبه مُبتعداً حتى ميعاد غير معلوم.

حينما جاء نهار، تبدلت في حياتي كُل الأشياء، لم يُعد الحُب مثلما كان ولا الخوف كما كان، لم تعد الحياة هي الحياة ولم يعد للموت ملامحه السابقة التي لطالما تخيلتها.

جاء نهار، وجاءت معه أشياء لا تُشبهها أشياء، لم يولد نهار في منتصفِ آب/ غسطس، أنا من ولدتُ فعلياً في ذلك النهار.

خرجتُ من تجربة الولادة تلك، امرأة مُختلفة الملامح والأفكار والأولويات، حينما جاء نهار، أصبحتُ امرأة حقاً، امرأة لا ينقصها في ميزان الأنوثة ذرة واحدة.

سأكون كاذبة إن ادعيت أنني خرجتُ من غرفة الولادة امرأة سعيدة، لكنني خرجتُ منها امرأة ناضجة حتماً، نضجت أحزاني في تلك الغرفة البيضاء الباردة فخرجتُ منها امرأة مُختلفة فعلاً، امرأة لا تُشبه المرأة التي دخلت غرفة الولادة أبداً.

حينما وضعت الطبيبة «نهار» الملطخ بالدماء على صدري، وعندما صاح صيحة الحياة، وضعتُ يدي حول ذلك المخلوق اللزج من دونِ أن أقرف منه أو أخشاه.

لم أكُن أعرف كيف أحمله ولم يسبق لي أن حملت طفلاً في أيامهِ الأولى، لكنني ضممتُه بغريزة لا تُفهم، أحطتهُ بذراعي خوفاً عليه من برودة التكييف القارسة، لم أشعر أنه طفلي ولم أشعر أنني أمه، لكنني شعرتُ بأنني الإنسان الوحيد المسؤول عن هذا المخلوق

في هذه الحياة، شعرتُ بأنه أمانتي ورأيتُ في عينيه حاجته إلي وثقته بي، رغم أنني كُنت أُدرك تماماً أنه لم يكُن يميز رؤيتي بعينيهِ بعد إلا أنني كُنت أعرف أنّ هذا الصغير لا يثق بمخلوقٍ سواي ولا يعرف أحداً غيري في هذه الحياة.

حينما أدخلوني إلى غرفتي بعدما انتهت معمعة الولادة، بكيتُ كثيراً، لم أتصل بأحدٍ لأبلغه عن خلاصي، حتى أمي التي كُنت أنتظر طوال حياتي لحظة إبلاغها بأنني قد أصبحتُ أماً مثلها، لم أقدر على الاتصال بها.

جلستُ في سريري، احتضنتُ الوسادة البيضاء بيدين أنهكتهما المعركة، وبكيتُ كثيراً!

بكيتُ حينذاك كُل الأمهات اللاتي أُجبرن على ترك أطفالهن على قارعات الطرق، بكيتُ كل آثمة تركت طفلها عمداً وكل مجبرة تركتهُ على الرغمِ منها، بكيتُ كل ذلك الألم وكل تلك القسوة.

كُنت أرتجف بكاءً وأنا أُفكر، أي قلب هذا القادر على أن يترك جزءاً منه في صندوق مرمي أو في حاوية نفايات، كيف يقدرن على فعلِ هذا؟!

استغفرت الله كثيراً، وشكرتهُ على تفضيله لنا مما ابتلاهن فيه، خشيتُ أن أصاب بما عِبت به غيري، فاستغفرته حتى نمت.

نمتُ تلك الليلة امرأة جديدة، امرأة لم تعد تشبه أمسها قطّ.

أيقظتني الممرضة بعد ثلاث ساعات من نومي، جاءتني بطعامٍ لأتناوله بعد أن لاحظت أنّ الطعام الذي جيء به لي قبل ساعات لم يُمس، استيقظت بدهشة المتيقظ من حلمٍ غُريب!

مرت ساعات الولادة كالحلمِ بالنسبة إليّ، أول ما فكرت به حالما استيقظت هو كيف نجوت من معركة الموت تلك؟، وكيف أنّ النساء يكررن تلك المواجهة من جديد بل يسعين لتكرارها أحياناً بعد أشهرٍ قليلة من المعركةِ الأولى؟!

تذكرت ذلك الصغير، ذلك الثمن!، ثمن المواجهة مع الموت، وثمن أن تمر المرأة بسكرات من سكراته، وأن تمر من أجله من عُنق الزجاجة.

سألت الممرضة عنه، طلبت مني أن أتناول فطوري لتأتي به بعدها فأُرضعه!

أخافتني فكرة الرضاعة تلك، كيف أُرضع طفلاً، أنا التي لا أعرف كيف تعد النساء حليب الأطفال الجاهز، فكيف بأن أُسقيه شيئاً من جسدي، شيئاً لا أعرف إن كان سيُضخ إليه مني حقاً.

مددتُ يدي إلى الطاولة الموجودة بجواري وأخذت هاتفي لأجد ثلاث مكالمات من أمي ومكالمتين من مالك، كانت أمي قد أرسلت لي برسالة كتبت لي فيها: اتصلي بي حالما تستيقظين!

جاءتني الممرضة بالطعام، فطلبت منها أن تحضر الطفل أولاً، اتصلت الممرضة بقسم الحضانة وطلبت إليهم أن يحضروه إلي.

أرسلتُ إلى أمي: صباح الخير حبيبتي، نُمت مُبكراً ليلة الأمس، سأتصل بكِ بعد قليل.

دخلت الممَرضة المسؤولة عن حضانة الأطفال وهي تدفع سريراً شفافاً صغيراً ينام فيه النهار، أحضرت لي كشفاً باسمي لأوقع على استلام الطفل، وأخبرتني أنه بحاجة لأن يرضع مني بعد قليل.. طلبتُ منها أن تساعدني على حمله، وضعتهُ في حضني باسمة في وجهي، كمن اعتاد دهشة وخوف وارتباك الجديدات من الأمهات.

حملتُه بذراعين خائفتين، أخذتُ أتأمل ملامحه الصغيرة، فبدت لي واضحة هذه المرة، كان جميلاً بشعره الأدكن الكثيف، وبفمه الصغير وحاجبيه الرفيعين.

كان يُشبه مالكاً، يُشبهه إلى أقصى دهشة!، قربتهُ من وجهي واستنشقتُ رائحته، كانت له رائحة لم أشم مثلها على الإطلاق، رائحة لا توصف، لا شيء يشبهها ولا شيء قريباً منها، ورغم أنني لم

أزر الجنة ولا السماء يوماً، إلا أنني أكاد أجزم أن رائحته كانت تُشبهُ رائحة الجنة والسماء السابعة.

مددتُ يدي لألمس وجهه الذي كان ناعماً كغيمةٍ رقيقة، حللتُ قطعة القماش التي كانت تُحيط به بإحكام، أمسكتُ أصابعه الصغيرة فأحاط بإبهامي بيده مُتشبثاً بها وكأنه يخشى أن ينفلت مني أو أن أنفلتَ عنه.

كُنت مأخوذة بهذا الكائن، وبتلك القدرة التي يملكها الله وحده، فيخلق شيئاً من لا شيء، أخذتُ أفكر وأنا أتأمله، كيف جعل الله هذا الإنسان كاملاً رغم صغر حجمه، وكيف خلقه من مزيجٍ اختلط فيه شيء مني وآخر من مالك.

أخذتُ أفكر وأنا أتأمل خطوط وجهه المجعد بفعلِ حداثة عمره، أي مزيج هذا الذي جاء مني ومن مالك؟

أكان مزيج شهوة، أم مزيج عادة، أم مزيج حُب؟!

مِمَ خُلقتَ يا نهار؟ وفي أي ليلة أمر الله تعالى أن تكون بداخلي؟!

لم يَعُد التاريخ مُهماً يا نهار، لم يعد يُهمني متى خُلقت بداخلي وكيف خلقت مني، المهم الآن متى جئت وأنك جئت.

سأضيف تاريخ ميلادك في مفكرتي، في فجرِ هذا اليوم، انشق الليل وُخلق النهار ولا يهمني شيء آخر!

فتحتُ عيني، على قُبلة مالك!

وجدتهُ بجوار سريري، يمسك كفي بقوة، ويقبل جبيني بحرارة وحُب وخوفٍ وامتنان!

ابتسم ابتسامته الدافئة حينما فتحت عيني: الحمدلله على السلامة حبيبتي!

أردتُ أن أقول له شيئاً، بل أردتُ أن أقول له أشياء كثيرة!، لكنني لم أستطع، لم أقدر على أن أُفسد تلك اللحظة، اللحظة التي نلتقي بها ثلاثتنا!، أنا وهو وطفل جاء منّا.

ابتسمت، أو ربما جمعت ما تبقى من ملامح ابتسامة قديمة، ابتسامة مُغتصبة!

قال وهو يمسح على شعري: كيف حالك الآن؟

- الحمدلله.
- والبيبي؟
- بخير، على ما أعتقد.

تنهد بارتياح: الحمدلله!، لماذا لم تتصلي بي لأكون معك؟

ابتسمت، أردتُ أن أقول له بلؤم إنني لم أرغب أن أُعكر صفوه، لكنني قُلت: أردتُ مفاجأتك!

رفع كفي وقبلها قائلاً: ما أجملها من مفاجأة ياسمين!

كُنت أتأمل مالك في تلك اللحظة، كيف يتلون مالك؟ كيف يتغير؟ كيف يمكنه أن يكون بتلك الألوان وتلك الأشكال وتلك الوجوه؟!

كيف يقدر مالك أن يفتعل الحُب، معي ومعهن؟.. كيف يمتعنا ويستمتع باللحظة من دونِ أن يُثير الريبة أو الشك؟

دلفت الممرضة وهي تدفع أمامها سرير نهار الصغير، قالت بالإنجليزية وهي تلوح بملفٍ بيدها: الطفل جائع، حان وقت الطعام!

اقترب مالك من سرير نهار، أسدل شماغه على جانبيه بارتباك، ومن ثم عدله وكأنه يستعد للقاء مُهم، لقاء عمل، أو ربما لقاء حُب!

التفت إلى الممرضة يسألها: أيمكنني حمله؟

هزت رأسها: بالتأكيد، يمكنكما استدعائي عندما تحتاجان إلي.

مد مالك يده ليلمس خد الصغير، كان مأخوذاً به، أو ربما مأخوذاً باللحظة التي كان يُدرك في قرارة نفسه أنها ستُغير قطعاً كل ما تبقى من حياته.

ابتسم: يُشبهكِ كثيراً!

- هذا غريب!

- لماذا؟

لأنني أشعر وكأنه مُستنسخ منك.

حقاً؟!

هززت رأسي موافقة، لمعت عينا مالك فقال: لا فرق في أن يكون مستنسخاً منكِ أو مني، فأنا منكِ وأنتِ مني وهو منا!

رفع مالك نهار إليه، أغمض عينيه وهو يشمه بقوة، وكأنه كان يستنشق من خلالهِ الحياة، قبّل جبينه وخديه، ووقف يتأمله بين ذراعيه بملامح مذهولة.

التفت إلي بعينين متأثرتين: أُحبه، أليس هذا غريباً يا ياسمين؟!

دمعت عيناي وهززت رأسي نافية وأنا أفكر، كيف سأقدر على أن أحرمك يا صغيري من هذا الحُب؟، الحُب الذي خُلق منذ اللحظات الأولى بينكما؟ كيف سأقدر على أن أختار لكَ أن تعيش الوحدة معي، بدونِ أب؟

ماذا سأفعل يا نهار؟

خرجتُ من باب المستشفى وأنا أحمل نهار هذه المرة، كُنت أُفكر وأنا أتأمل وجهه تحت أشعة الشمس التي لم ترحم حداثة عهده بالحياة، كُنت أفكر كيف سأكون أقوى؟!

رُبما لم أحاول أن أتغير في السابق لأنه لم يكُن هناك دافع للتغيير، لكن ظروفي اليوم تدفعني لأن أواجه الحياة بقلبِ لبوة.

ماذا يعني أن تخسر المرأة زوجاً؟!، ماذا يعني أن يموت في قلبها حُب رجل؟!

أفكر اليوم، أي أكذوبة هي التي خدعنا بها الأدب وخدعتنا بها الحياة وخدعنا بها الإعلام؟!.. كيف صدقنا أن أقصى درجات العشق لن تكون إلا بين الرجل والمرأة؟!،..كيف كبرنا متلبسين بهذه الفكرة؟..كيف عانينا بسببها وكم تألمنا منها؟!..كيف استنزف حُب الرجل مشاعري؟!.. وكيف قضيت حياتي حُزناً على فقدِ الرجال؟!

علمتني التجارب اليوم أنّ الحياة لا تقف من أجل الرجال ولا تنتهي من أجلِ أحدهم.

ها أنا قد عشتُ معظم حياتي بدونِ أب، وعشتها كلها بلا أشقاء، عشتُ حياتي بدونِ أن يكون لي ظهر ذكوري ولا سند رجولي أستند إليه في أوقاتِ حياتي الصعبة.

عشتُ بعُكازين أنثويين، كُنت أتكئ على أمي وعلى شقيقتي طوال الحياة، لم أطلب منهما المعونة يوماً، لكنهما كانتا في العونِ دائماً، كُنا عصبة ناعمة في مُجتمع ذكوري خشن، لا يعترف بقوة الإناث ولا بقدراتهن.

نعم، عشتُ حياتي بدونِ أب ونجحت في الكثيرِ من مشاريع حياتي بدون أب، لكن حياتي كانت شبه حياة من دونه، كانت تنقصني الكثير من لحظات السعادة التي كُنت سأعيشها لمُجردِ وجوده في حياتي.

أقادرُ نهار على أن يعيش تلك الحياة؟ أقادر على أن يُحبها؟! بل أقادر هو على أن يتحملها؟، أقادرةُ أنا على أن أمنحهُ سعادة حقيقية وكاملة من دونِ أن يعيش في كنف أب؟

يُخيل إلي أحياناً أن عقدة «اليتم» هذه ليست في واقعها بهذه القسوة وبهذه البشاعة؟!، أشعر أحياناً وكأن ما مررتُ به ليس إلا حالة من حالات كُرة الثلج، لم يكُن يُتماً محضاً ولم تُكن مُجرد أزمة فقط.

كانت كُرة من الحُزن والغضب، تدحرجت من أعلى القمة، فكبرت وكبرت وكبرت.. وثقل قلبي بقدرِ ما تضخمت تلك الكُرة.

مُنهك هو قلبي، ثقيل هو، بفعلِ الموت وفعلِ الحُب وفعل الخيانة، مُنهك هو برجُل خسرته بفعل الموت، ورجُل خسرته بفعل الخيانة.

أفكر اليوم، لِمَ سمحت لكُل هذا بأن يُدمي قلبي؟.. لِمَ لم أجعل الموت يعبر بدون حُزن أو مقاومة، لِمَ لم أجعل الحُب يرحل بلا حسرة ولا ندم؟!.. لِمَ لم أبصق على الخيانة بدون حقدٍ ولا غضب؟!

لِمَ سمحت لكُل هذه المشاعر أن تسكن قلبي، وأن تنسج فيه خيوطاً من ألم؟ لِمَ لم أنتهِ عند النهاية؟ ولِمَ بقيت واقفة على بوابة الرحيل، بدونِ أن أغلقها أو أن أتراجع إلى حيثُ الحياة بفرصها الكثيرة وبداياتها الجديدة؟!

من المؤكد أنني لم أعد كما كُنت، قطعاً غيرتني الحياة، لذا سأوصد الأبواب إلى الأبد، لكنني لا أعرف متى سأوصد الأبواب!

عُدتُ إلى الحياة، تنازلت عن الكثيرِ من الحياة للحياة، قررتُ أن أتزوج النسيان، أن أعتنقه، أن أعيش زواجي وكأنني عمياء وصماء.

وبرغم أنني لطالما آمنت بأن يكون الإنسان غبياً أفضل له ألف مرة من أن يتغابى، إلا أنني قررت أن أعيش حياتي غبية ومتغابية، بملء إرادتي وبكاملِ وعيي.

قبلتُ أن أقايض كرامتي باستقرارِ نهار، أردتُ أن يعيش نهار كما يعيش معظم الأطفال السعداء، أن يعيش طفولته بين والدين يعيشان تحت سقف واحد.

هذا ما يعلمونه لنا في علم النفس، هذا ما يحاولون إقناعنا به في علم الاجتماع وهذا ما افتقدته في طفولتي.

كُنت مع نهار في حديقة منزلنا، لم يكُن يتجاوز عمره الشهر الواحد، اضطجعتُ على الأرجوحة وأنا أهز سريره المتحرك المجاور لي، ليتأرجح معي قبل غروب شمس صيفية.

أقبل علينا مالك وهو عائد من العمل، حمل نهار وجلس بجواري واضعاً نهاراً على صدره وهو يُقبل جبينه.

قال لي مُبتسماً: كيف كان نهاركما؟

- الحمدلله، كان لطيفاً.

ابتسم: سوف تفوزين بجائزة أغربِ أم جديدة لهذا العام!

- حقاً! ولِمَ؟

- لا تقضي أم أنجبت طفلها منذ أسابيع قليلة أياماً لطيفة بخاصّة إن كانت أماً لأولِ مرة.

- يبدو أنني أم بالفطرة!

- أرى ذلك أيضاً، أشعر وكأنكِ أم لعدة أطفال، أسبق أن أنجبتِ قبلاً؟

- سبق وأن أنجبتك، ألست بابنِ قلبي؟!

- ستفوزين بجائزة ألطف زوجة أيضاً لهذا العام!

ضحكت، فقال وهو ينظر إلى حمام السباحة المقابل لنا: ما رأيكِ في أن نردم المسبح؟

- ولماذا؟

- أعتقد أننا نحتاج إلى مساحة كبيرة قريباً ليلعب بها الصغير.

- نهار، اسمه نهار!

قال على مضض: نهار نهار! لا أعرف من أين جئتِ بهذا الاسم، وكيف قبلت بأن نُسمي به طفلنا الأول!

- دعك من أمر الاسم المنتهي ودعنا نتحدث في أمر المسبح!

- ما رأيكِ؟
- لا أعرف، أحلم بأن نعلم نهار السباحة مُبكراً.
- أليس خطراً أن يكون المسبح مكشوفاً بوجود أطفال في المنزل؟
- بلى، لذا يجب علينا أن نقيم سياجاً بدلاً من أن نطمره.
- مثلما تُفضلين، ذكريني أن نُقيم سياجاً حوله قبل أن يتعلم الصغير الزحف، متى يزحف الأطفال بالمناسبة؟
- لا أعرف!

ابتسم مُداعباً: ألم تُنجبي قبلاً؟!

كبر نهار بسرعة، في كُلِ يوم هو يكبر.. ينامُ على غنائي المرهق السعيد، وأستيقظُ على غنائه الجائع الباكي.

أفكر إلى أي حدٍ تغيرت بعدما أصبحتُ أماً؟!.. أظنُ أنني لم أتغير، بل الحياة هي من تغيرت، تغيرت حولي كُل الأشياء، باتت لها ملامح ناعمة، وأصوات عذبة وروائح زكية لم أشمها قبلاً.

تعرفتُ إلى أماكن جديدة، اطلعتُ على ثقافة لم أفقه بها يوماً، أدخلتني الأمومة عالماً لم أكن أعرف عنه شيئاً ولم أحاول قبلاً أن أفهم فيه شيئاً.

وجدتني أقتحم ذلك العالم بشغفٍ وحماسة ورغبة في أن أربي طفلاً سعيداً، وأن أعوض عن يُتم طفولتي في أن أعيش أماً سعيدة، هذا جُل ما أردته، أن أعيش أنا وهو.. طفل سعيد وأم سعيدة.

لَكَم شغلتني الأمومة عن زواجي المُتهالك، فهمت اليوم كيف تعيش الزوجات المخذولات، كيف يكملن زيجاتٍ تعيسة، كيف يضحكن، ويأملن، ويحلمن وكيف يشعرن بالسعادة في خضمِ التعاسة!

أتأمل مالكاً في أوقاتٍ كثيرة وأُفكر.. كيف كان هذا الرجُل كل حياتي؟، كيف كُنت لأعيش معه أو بدونه، ماذا كُنت سأفعل لولا وجود نهار؟

هل أنقذ نهار زواجنا، أما أنا من يحاول أن يُنقذ طفولته؟، لا أعرف، كُل ما أعرفه أن لكُل شيء في الحياة سبباً، وأن الله يضع في طريقنا أشخاصاً وأشياء ليُنقذ بهم أو يدمر بسببهم حياتنا.

لم أعد أُريد أن أستبق الحياة، لم أعد أرغب بفلسفة الأمور وتحليل المواقف، كل ما بات يهمني الآن هو أن أعيش اللحظة وأن أستمتع بها.

من يدري!، فكم من لحظة ستمر في حياتنا ولن تتكرر!

أشعر اليوم وكأنني أرغب بتعويضٍ كل ما قد فاتني وما لم أجربه ولم أعشه، أُريد أن أعوض عشرين عاماً أو ربما أكثر.

أن أحيا طفولة جديدة، ومراهقة جديدة وصِباً جديداً، أُريد أن أصلَ إلى نضج آخر، نضجٍ لا يُشبه نضجي الموجوع الآن، أُريد نضجاً تتخلله الكثير من حكايات الحياة مثلما يتخلل نضجي هذا الكثير من حكايات اليتم الحالكة.

أشعرُ وكأن الله قد منحني نهاراً عوضاً عن آلام كثيرة، لذا أريد أن أُقبل على الحياة، أن أعيش بياضها وأن أستمتع بالعوض.

ما أقسى الموت الذي يسرق الحياة، وما أجمل الحياة التي تأتي بعد موت!

أتذكر اليوم الذي تحدثتُ فيه لأولِ مرة مع مالك، اليوم الذي شعرتُ فيه بأنني لن أتزوج أبداً لو لم أتزوج ذلك الرجل!

لم يكُن مالك يُشبهني البتّة، كان مُختلفاً عني في كُل شيء، بل كان نقيضي التام؛ رجُل لا نلتقي أنا وهو معاً إلا في دربين أو ثلاثة، بينما كانت تفرقنا عشرات أو مئات الدروب.

أفكر اليوم فيما لو كان الخطأ خطئي، فيما لو كان سقف توقعاتي أعلى بكثيرٍ مما هو الواقع وما هي عليه الحياة.. لربما توقعت الكثير من رجُلٍ لا يستطيع أن يُعطي «كثيراً»، هو لم يعدني بالكثير فلِمَ توقعت الكثير منه؟

تشعر النساء دائماً أن الوفاء في الحُب من بديهيات العلاقة، لذا هن لا يطلبنه ولا يسألن في الحب وفاءً، يتوقعن الوفاء بلا طلب وبلا مناقشة، وينسين أن في الحُب مذاهب مختلفة ورؤى كثيرة ورجالاً لا يشبهون بعضهم بعضاً حتى في أكثر المشاعر حميمية.

هل أختلق الأعذار لمالك؟!، هل أبرر له ما أحرمه في الحُب

تحريماً عظيماً؟!، هل بتُّ ضعيفة إلى درجة أنني لا أقدر على الانفكاكِ عنه، والبدء بداية جديدة في مكان آخر مع رجُل آخر أو ربما بداية ونهاية بدون رجُل؟!

أنا لا أُريد أن أختلق للبشاعة زاوية جميلة، لا رغبة لي بأن أجمل القبح ولا بأن أحلل حراماً.. لا أُريد للعاصين التمادي، ولا أقبل بأن أعيش مع نصف رجُل لأنني حينذاك سأكون نصف أنثى، وهذا ما لا أستطيع فعله، وما لن أرتكبه في حقِ أنوثتي يوماً.

أنا لا أبرر لمالك، ولا أجد في كلّ ما فعله ويفعله أي مبرر، لكننا خُلقنا مُختلفين، نشأنا مُختلفين في بيتين مُختلفين وفي بيئتين مُختلفتين، كبرتُ أنا كأمي، وشبَّ هو كشباب أبيه العابث.

لكنني لا أُريد أن يكبر ابني كمالك، لا أُريده أن يكُمل تلك السلسلة العابثة، أُريد له إنسانية أجمل، إنسانية لا تجرح أحداً ولا تُسيء إلى أحد، أُريده أن يستمتع بالوفاء، وأن يكون رجُلاً حقيقياً بملامح ثابتة، بلا تلون ولا تطبع ولا زيف ولا رياء.

أُريد لابني رجولة لا تُلطخ، وحياة لا يعبث فيها هو بحياة أحد مثلما لا يعبث أحد بحياته.

أبشع وجه من وجوه الزواج هو انعدام الثقة بين الزوجين، أن تتوقع كُل شيء وأي شيء من الطرف الآخر، أن تنتظر منه أي خيبة وأن تتوقع منه الخذلان في أي وقت، أن تخشى إدارة ظهرك له وأن تتوقع منه طعنة قاتلة في أية لحظة!

أعرف اليوم أنّ مالكاً لن يتمكن مني ولن يقدر يوماً على أن يُجهز عليّ، اليوم أُدير ظهري له لكنني أديره بعينين يقظتين تلتفتان إلى حيثُ يقف، اليوم أنام مفتوحة العينين، وإلى جانب رأسي ضمادات وأدوية، أنام وأنا مستعدة للنجاة مثلما أنا مستعدة للمباغتة، أنا لم أعد أرفض الغدر لكنني أرفض الانتهاء بسببه، لن أنتهي بسبب غدر ولن تصدمني يوماً خيانة، حتى وإن كانت تلك الخيانة من زوجي.

أبداً أبداً!

بات الحُب فقاعة صابون، فقاعة تكبر، تطير، تُبهر.. ومن ثم تنفجر فتنتهي وكأنها لم تُكن!

لطالما آمنت باستمرارِ الحُب وخلوده، لطالما ظننتُ بأن حُبي دائماً سيكبر وسيزدهر وسيثمر.. وبأنني ما إن أجد الحُب فلن يقدر شيء، ولا أحد على أن ينتزعه من قلبي أو أن يُنهي حُبي يوماً، لكنني أشعرُ وكأن الله قد انتزع مالكاً من قلبي، أشعر وكأنه قد استُأصل مني، أُزيل، بُتر.

لا أعرف لماذا أخاف في الحُب، أفكر دائماً في إن كان كل الناس يخافون ممن يحبونهم وعلى من يحبونهم مثلي، أم إني وحدي من يرقب الحُب بعينين خائفتين ومتوجستين!

أنا لم أكُن أخشى مالكاً فقط، كُنت أخشاه وأخشى عليه، أخشى أذيته وأخشى خسارته، كنت أخاف مباغتات الحياة ومفاجآت القدر، كُنت أخشى أن يجعل الله ابتلائي به، وأن يكون الابتلاء خيانة أو خسارة.

أذكر حديثنا أنا ومالك حيال ما نخشاه في الحياة.. أذكر بأنه قال لي إنّ الحياة تُعاقبنا إن لم نثق بها فتوقع علينا ما نخشاه!

قُلت: وهل يفترض بنا أن لا نخشى شيئاً؟

- تأكدي دائماً بأن ما تخشينه سيقع!
- ولماذا يقع ما نخشاه؟
- لا أعرف، أظنُّ بأن أفكارنا تجذب طاقة سلبية ما، فيقع ما نخشى أن يقع.
- وكيف نُبعد عنا هذه الطاقة وتلك الأفكار برأيك؟
- في أن نُفكر في الأشياء التي نُريدها، لا الأشياء التي نخشاها، فكري فيما تُريدين وفيما تحلمين به، لا تغرقي في التفكير بمخاوفك أبداً.
- وإن كنت لا أقدر على أن أُفكر بإيجابية؟!

قال ساخراً: لا تفكري بشي إذاً!، توقفي عن التفكير، استقبلي ولا تُرسلي!

- ابتسمتُ حينذاك من بساطة الفكرة، في أن أتوقف عن التفكير، أن أستقبل ولا أُرسل، وبكلِ بساطة!

اليوم، أظنُ بأن مالكاً كان مُحقاً، أصاب مالك في المسألتين، في أننا نجلب الأقدار السيئة بأفكارنا المتشائمة، وبأنه من الواجب علينا أن نتوقف عن التفكيرِ إن كان التفكير سلبياً... أن نقوم ببعض التعديلات على إعدادات الاستقبال والإرسال في عقولنا، أن

نقوم بتعطيل خاصية الإرسال وتفعيل الاستقبال ولا شيء غير الاستقبال!

اليوم أحاول أن أعطلَ الأفكار السلبية، أن أوئدها، أن أنهيها قبل أن تبدأ، لكن لحظات الهلع دائماً ما تنتابني ما أن أفكر في سوء قد يصيب نهار!، أهرع إليه، أضمه إلي بفزع، أستنشق رائحته وكأنها آخر مرة أحتضنه فيها، تنهمر دموعي وكأنني قد خسرته فعلاً، لتُطالعني عيناه الصغيرتان وهما تتأملانني وكأنني قادمة من عالمٍ آخر!

أُدركُ الآن أنني لن أقدر على أن أعيش بدونِ نهار، اليوم أنا قادرة على خسارة مالك وخسارة أمي وشقيقتيّ وكل من يهمني في الحياة، أظنُ أنني قادرة على أن أنجو ما دام نهار معي، لكنني أعرف أنني لا أقدر على النجاةِ من دون نهار مهما فكرتُ بإيجابية وحتى إن عطلت الإرسال وربما الاستقبال، وأن لا شيء يمكنه إنقاذي إن بتُّ بلا نهار، أبداً أبداً!

اليوم أخشى أن أُفكر، أخشى أن أتخيل، أخشى أن تغدر بي الحياة، من يقدر على أن يمنع قدراً من أن يقع؟ من يقدر على أن يُنازل الحياة؟

أصبحتُ أتأمل كثيراً، أتأمل حتى في حالة الانتظار، الحالة التي لا نخرج منها كما دخلنا إليها لو أمعنا التدقيق في تفاصيلها.

بتّ أرى في صالات الانتظار مُجتمعات مُصغرة، مجتمعات منها وفيها نتعلم الكثير من الأشياء وعن الأشياء.

نرى فيها كل الطبقات وجميع الشرائح، ونخرج منها بأفكارٍ مُختلفة ومعلومات جديدة صحيحة ومغلوطة، والكثير الكثير من الصبرِ بفعل الانتظار.

الصبر!

الصبر حقاً هو أعظم صفات الأمومة وأصعب الدروس التي يعلمنا إياها أبناؤنا لحظة مجيئهم إلى هذه الحياة.

من قال إن أبناءنا يُدينون لنا بوجودهم في هذه الدنيا؟!، من قال بأنه من الواجب علينا أن نعلمهم كيف يعيشون معنا بامتنان على كل ما قدمناه لهم وعلى وجودهم في هذه الحياة بسببنا!

يجب على أبنائنا أن يكونوا مُمتنين لنا بقدرِ امتناننا لهم على

وجودهم في حياتنا وعلى ما أضافوه إلينا بدونِ جهد وبدونِ قصد.

يخلق الله الأطفال كصفحات بيضاء نقية، فنرسم عليها خطتنا في الحياة ونكتب كلّ ما نريد منهم تنفيذه في حياتهم، وبغض النظر عن تحقيق ما كتبناه أو مخالفته جملة وتفصيلاً، يجيئون هم ليمسحوا الكثير من السواد في صفحاتنا المشوهة، صفحاتنا الملأى بما خطه علينا أهلنا قبلاً وبما خطته لنا وعلينا الحياة.

يجيئون فيرسمون فيها الصبر والتضحية والمحبة والإيثار، ويعلموننا أشياء كثيرة لم تقدر أي تجربة على أن تعلمنا إياها.

لَكَم أنا مُمتنة لنهار!، مُمتنةٌ له على كل الأمور التي استطاع أن يعلمني إياها، مدينة له لأنه جعلني امرأة أكثر قوة، وأكثر نضجاً وأكثر قدرة على التعايش والصبر والتفاؤل والأمل.

مدينةٌ له على المساحات البيضاء الشاسعة التي أضافها إلى حياتي الضيقة الحالكة، مدينة له بأن أصلح ما بيني وبين الحياة.

تذكرت جبران حينما قال «أولادكم ليسوا لكم، أولادكم أبناء الحياة المشتاقة إلى نفسها، بكم يأتون إلى العالم وليس منكم ومع أنهم يعيشون معكم فإنهم ليسوا ملكاً لكم»، أذكر أنني قد قرأتها في كتابه «النبي» وأنا في مراهقتي، استوقفتني كثيراً لكنني لم أفهم حينذاك ما الذي أراد جبران أن يوصله إلينا، ما

الذي أراد قوله لنا ، وإن كان قد جعلني أفكر طويلاً في ما وراء هذه الكلمات.

اليوم أفهم ما الذي كان يعنيه جبران، أفهم أنّ أولادنا ليسوا لنا وأنهم ليسوا ملكنا، وأظن أنه كان ليقول بأننا نحن مُلكٌ لأولادنا، وبأننا لهم!

أولادنا الذين يغيروننا، والذين يجعلون منا أشخاصاً مختلفين عما كنا عليه في السابق، أولادنا القادرون على تخليصنا من عقد الحياة ومن معاناتنا السابقة ومن مآزق كثيرة لا قدرة لأحد بعد الله على أن يُخلصنا منها.

أولادنا.. ليسوا لنا!

تنتابني الكثير من الأفكار أخيراً..

أُفكر كل يوم، هل أنا من اخترت الشقاء لحياتي؟! أأنا من اختار هذا القدر؟!

يُشدد الداعون للإيمان بالطاقة الذاتية وعلماء التنمية البشرية على أن السعادة لا تتحقق إلا بالاختيار، بأننا من نختار السعادة ومن نجذبها إلينا، لكنني أفكر إن كانت السعادة اختياراً حقاً، فلِمَ يعيش الكثير من الناس بُحزنٍ وضنك؟!

من يختار أن يعيش حياته تعيساً؟!، من يختار التعاسة إن خُير بينها وبين أن يعيش بسعادة؟!

لايبدو لي ذلك منطقياً حتى وإن كُنت المرأة البعيدة تماماً عن المنطق!

اليوم، أُريد أن أختار السعادة، أسعى إليها وأرجوها، لكنني لا أعرف حقاً إن كان هذا كافياً كي تتحقق!

أؤمن بأن طاقة السعادة طاقة قوية داخل أي إنسان، لكنني

أؤمن أيضاً بأن طاقة الحُزن طاقة عظيمة تُدمر الأعماق وتشوه كل ما بدواخلنا ما أن تنفجر!

لذا أُريد أن أُبدد تلك الطاقة المتراكمة في داخلي، بفعل الموت وفعل التجارب وفعل الزمن، أُريد لتلك الطاقة أن تنطفئ، أن تنتهي وأن تندثر إلى الأبد، أُريد أن تشع السعادة من جديدٍ في أعماقي، أن تظهر إلى السطح وأن تملأ روحي رقصاً وغناءً وجمالاً وألقاً!

أحتاجُ لأن أعيش حاضراً ومُستقبلاً بدونِ أي رابطٍ يربطهما بالماضي، أحتاج لأن أُزيل الفاصلة بينهما وأن أضع نقطة النهاية، لأبتدئ سطراً جديداً بحاضرٍ جديدٍ ومُستقبل سعيد لا يربطه بالماضي شيء أو أحد.

هذا هو اختياري، أن أعيش حياتي سعيدة، أيكفي هذا حتى يلين القدر؟!

لا مُتعة تضاهي مُتعة مراقبة طفل صغير.. أشعر حينما أراقب طفلي أنني أرى من خلاله العالم؛ فالطفولة عالم مليء بالدهشة والفرح والضحكات، عالم لا يُشبهه عالم، وحياة لا تشبهها حياة.

يكبرُ نهار أمامي بسرعة لا تُصدق، يتطور في كل يوم ويكتسب في كل يوم جديد مهارة، يشهق نهار بفرح حينما يراني، يُصفق جذلاً ويلوح بيديه بفرحٍ وحماسة وكأنه قد رأى العالم أجمع.

ما أجمل دهشة الأطفال وما أسهل سعادتهم! تُسعدهم أبسط الأمور وتُدهشهم أصغر الأشياء وأتفهها، كم أغبط الأطفال على هذه البدايات، أغبطهم على هذه الدهشة وعلى هذا الجذل البسيط الأسباب.

كم هي معقدة سعادتنا نحن البالغين، كم هي صعبة هذه السعادة!

جميعنا نشعر بالسعادةِ كل بطريقته، يشعر الأطفال والبالغون

بالسعادة، لكنْ هناك فرق شاسع بين السعادتين؛ فتعقيد سعادتنا يفقدها الكثير من الأشياء التي تُتميز بها بساطة سعادتهم!

تعلمتُ أشياء كثيرة لأجلِ نهار، حفظتُ أغاني الأطفال، وتعلمت الكثير من ألعابهم، قرأت عشرات الكتب عن التربية والأمومة، وقرأت عشرات قصص الأطفال بلغتين.

تعلمتُ كيف أطهو طعاماً صحياً وكيف أعيش حياتي بدقةٍ ونظامٍ رغم فوضويتي طوال حياتي.. تعلمتُ أن أكتفي بأربع أو خمس ساعات من النوم المتقطع كل ليلة، أنا التي كان النوم هو ملجأها الوحيد في هذه الدنيا.

تعلمتُ أن أستيقظ بوجهٍ باسم رغم الإنهاك، تعلمتُ أن أُنجز ثلاث مهمات في الوقت نفسه والتركيز ذاته، تعلمتُ أن أصير أُماً من دونِ أن تعلمني الأمومة دور الأم!

دعوت صديقاتي من الأمهات في منزلي لأول مرةٍ من بعدِ الأمومة، طلبت منهن أن يصطحبن أطفالهن للمرة الأولى أيضاً، جئن بـأرواحٍ مُتذمرة بفعل الالتزام؛ فالأمومة ليست إلا الوجه الرسمي للالتزام شبه الأبدي والقاسي أحياناً.

كُنت أراقب أطفالهن طوال اليوم، بأعمارهم وأجناسهم المختلفة وأنا أفكر متى سيُصبح نهار كبيراً إلى هذه الدرجة؟!، متى سيأكل بيده؟ متى سيتكلم؟ متى سيركب الدراجة ومتى سيتشاجر مع أصدقائه من الأطفال؟!

وجدتني أتغير فجأة بحضورهن، تغيرت محاور أحاديثي، تغيرت ثقافتي، اهتماماتي، تغيرت نظرتي لكُل ما يجري في الحياة.

كُنت أستغرب في السابق من تغيّر صديقاتي، فما إن تُصبح إحداهن أماً حتى تتغير تغيراً جذرياً، تغيراً كان مُستنكراً بالنسبة إليّ حينذاك، لأنني كُنت أؤمن دائماً بأنه من الواجب على المرأة أن لا تسمح لا للزواج ولا للأمومة بتغييرها، كُنت أرى أن هذا يُهين قوة المرأة واستقلاليتها، لكنني أجدني اليوم أتغير وأتغير، وأتغير وبكلِ سعادة وبدونِ مقاومة أو غضب أو حتى رفض.

كانت ليلة الأمهات والأطفال تلك من أجمل الليالي التي قضيتها بصحبةِ صديقاتي، تعرفت فيها إلى أطفالهن لأولِ مرة، لم تُكن تلك المرة الأولى التي أقابل أطفالهن فيها، لكنها كانت أول مرة أستمع فيها لهم بقلبٍ مُنصت.

كُنت أسلم عليهم في الماضي سلاماً مُجاملاً، أتبادل معهم الأحاديث اللطيفة لا استلطافاً لهم بل لأنه من المفترض أن نكون لطفاء مع الأطفال، كُنت أُمازحهم بروحٍ باردة وكأنني لا أراهم فعلاً، لكنني اليوم أنظر إليهم بعينين مختلفتين، أُتأمل ملامحهم، أُحدق إلى أعينهم، أراقب تعابير وجوههم وأجسادهم المدهشة، وأفكر أين كُنت قبلاً من هذه العالم المُبهج؟! لِمَ لم أُكن أراهم كما ينبغي على الإنسان أن يرى طفلاً منهم؟!

أكُنت غائبة بُحزني، أم إن هذه الرؤية لا يقدر على تمييزها سوى الأمهات والآباء؟!

في نهاية الليلة اتصلتُ بأمي لأخبرها عن نجاح الاجتماع، كانت تستمع إلي وهي تضحك من أعماقها، فسألتها: أمي! لماذا تضحكين من بداية المكالمة؟!

- لأنكِ تغيرتِ كثيراً وبسرعة لا تُعقل!
- وكيف تغيرت؟!
- أصبحتِ أماً حقيقية، باتت كُل أحاديثكِ عن الأطفال يا ياسمين.
- وهل هذا خطأ؟!
- بالطبع لا ، أنا سعيدة لأنكِ بتِ تتصلين بي كل ليلة يا ياسمين، لم أكُن أسمع صوتكِ إلا مرة أو مرتين في الأسبوع، لكن الأمومة علمتكِ ما معنى أن تكون المرأة أماً.
- رُبما يا أمي، رُبما!
- أنا سعيدة لأنك مُستمتعة بأمومتكِ وعالمكِ الجديد يا ياسمين، لكنني أُريدكِ أن تحذري!
- مِمَ أحذر؟
- من الانغماس في هذا الأمر دون سواه، لا تنسي ذاتكِ يا ياسمين ولا تنسي مالكاً!

- وما دخل مالك في الأمر؟
- راقبي نفسكِ يا ياسمين، استرجعي أحاديثكِ، متى آخر مرة حدثتني فيها عن مالك؟ حتى إجاباتُكِ حينما أسألكِ عنه، تأتي سريعة، غير مُكترثة وعلى مضض.
- لا جديد في حياتي مع مالك كي أحكيه يا أمي.

كل ما أُريد قوله هو أن التوازن حكمة يا ياسمين، انتبهي إلى حياتكِ وإلى زوجكِ.

ودعتُ أمي تلك الليلة وأنا أُفكر، كيف بات مالك بعيداً عن عالمي إلى هذا الحد!، الحد الذي أصبح يُدركه من حولي ويشعرون به.

أبتُّ ضعيفة إلى درجة أنني تجاوزت خيانة وسامحت رجُلاً خائناً بدون عقاب ولا حتى مواجهة؟! أم بتُّ قوية لدرجة أنني لم أعد أُبالي برجلٍ خانني وكأنه لم يعد موجوداً في حياتي؟!

في كلتا الحالتين، أنا لم أواجه مالكاً قطّ، ولا أعرف كيف أواجه أمراً كهذا؟! أهو هروب دائم أم هي مواجهة مؤجلة؟!

لستُ أعرف، كُل ما أعرفه أنني لم أُعد أبالي بما حدث، ولا أظنُّ بأنني سأُبالي بما قد يحدث..

كش ملك.. تجاوزت مالك!

الرياض..

مدينة الصرامة، المدينة التي لا تبتسم في وجهِ أحد، لا للشباب ولا للشابات ولا حتى للشيوخ والأطفال الذين لا يقدر على أن يعبس في وجههم أحد!

مدينة لا ترمش لها عين، تتعامل مع جميعِ ساكنيها بروحٍ جافة وكأن اللين عيب أو ضعف.

أبحث في الرياض عن مكان يناسب أمومتي وحالتي الجديدة، مكان أدخله مع طفلي لأُنجز فيه وأستمتع بينما هو في مأمن، لكنني لا أجد في مدينتي شيئاً من ذلك.

من الغريب أن تكون المدينة التي لا تقبل ولا تحترم فرداً إلا إذا كان ذا عائلة لا تُقدر حاجات الأطفال ولا حاجات أمهاتهم.

أُفتش هُنا وهُناك وتصدمني النتيجة، هُنا مكان للنساءِ فقط وهُناك مكان للرجال فقط، وذاك مكان للأطفال فقط! وكأننا نعيش جميعنا في عالم من العزلة غير المنطقية.

أُفكر بدهشة وألم، كيف تعيش الأمهات في هذه المدينة؟!
كيف يُطالبن بالاستغناء عن العمالة المنزلية إن لم يكُن هناك أماكن تحتضنهن مع أطفالهن معاً؟!

لِمَ نعيش في مدينتنا بمعزلٍ عن بعضنا البعض؟! الرجال مع الرجال والنساء مع النساء والأطفال مع الأطفال!، أليست عناصر العائلة هي أب وأم وأبناء؟، لماذا نُعزل عنهم إذاً ولماذا يُبعدون عنا؟!

لَكَم أُحب الرياض! ولا أعرف كيف يقدر أحد على أن لا يُحبها!، لكنني أحتاج إليها، وإلى أن أرى وجهها الباسم الحاني، أحتاجُ إلى أن تمد إلينا يد الثقة، أن تربت رؤوسنا بصوتٍ واثقٍ حازم «أنتم أبنائي لذا أثق بكم!».

أليست الأمومة ثقة؟!، أليست هي أمنا؟!، فلِمَ إذاً تُحدق إلينا بكل هذا الشك؟!

أحتاجُ أن يُحب أبنائي الرياض مثلما أحبها أنا، أحتاجُ أن تفتح لنا حضناً تغنينا فيه عن سواها، فلا نفكر إلا فيها ولا نعود إلا إليها.

باتت كل مشاريعي وأحلامي المستقبلية تدور حول عالم الصغار وكأنني أتوق لإنقاذهم!، حضانة، مكتبة، مدرسة ونادٍ ثقافي ورياضي للأطفال.

بتُ أحلم بمشاريع كثيرة تجد فيها الأمهات إنسانيتهن مع أطفالهن، عالم من المشاركة بين الأم وأبنائها، عالم من الفطرة، من الطبيعة ومن الحياة.

سعيتُ بشتى الطرق لأن أُنجز في الرياض شيئاً من الأمومة والطفولة معاً، صدمتني البيروقراطية، وقفت في وجهي مُتحدية، رغم أنني لم أسعَ إلا لأن أحقق فيها شيئاً من البهجةِ، ولا أعرف حقاً لماذا رفضت الرياض ذلك؟، ولماذا تُصر على أن نعيش فيها ونحن نُناضل وكأننا نقاوم الحياة؟!

أُفكر كُل ليلة، متى ستحُن الرياض علينا، وتلمع في رأسي عيون الأطفال وابتساماتهم المُشعة..

نام نهار منذ ساعتين، جلست مع مالكٍ كأي امرأة تتوق لأن ينام طفلها الصغير لتقضي بعض الوقت مع زوجها!

أُراقب مالكاً وهو يقلّب بجهاز التحكم عن بعد وأنا أُفكر، كم بات بعيداً هذا الرجل!، يُخيل إلي أنه ابتعد إلى الدرجة التي باتت عودته منها مستحيلة!

في كُلِ علاقةِ زواج هُناك خط أحمر صغير ودقيق، يُحيط العلاقة الزوجية بشكل دائري، كدائرة حمراء ضخمة، ما إن تتجاوز قدما أحد الطرفين هذا الخط حتى يقوم مكانه جدار عظيم بلا أبواب ولا نوافذ، جدار يستحيل من بعده العودة إلى داخل العلاقة من جديد.

شعرت أخيراً كأن مالكاً يقف أمام الخطِ مُباشرة، يُلامسه، بعض الميليمترات القليلة تفصله عن خارج الدائرة، الدائرة التي إن خرج منها فلن يقدر على أن يعود إليها مهما حدث.

التفت مالك وكأن ضجيج أفكاري قد أزعجه: بماذا تفكرين؟

- بك!

ابتسم: وما بي؟

- هل أنت سعيد معي؟

- ولماذا هذا السؤال الغريب فجأة؟

- ولماذا لا تجيب عن سؤالي؟

صمت للحظات: لا سعادة لأحد طوال الوقت، خصوصاً في الزواج، تسوء الأوضاع حيناً وتتحسن أحياناً أُخرى.

- ماذا عن المجمل؟! هل أنت سعيد معي؟

- مثلما قلت لكِ يا ياسمين، مفهوم السعادة مفهوم نسبي، لكننا نملك الكثير، ولدينا أشياء كثيرة جميلة في علاقتنا الحمدلله.

- تتهرب من الإجابة!، حسناً سأُسهل عليك الأمر، هل تُحبني؟

- ضحك: هذا هو السؤال الذي يجر المشاكل في أي علاقة زوجية.

- أنت لا تحبني إذاً!

- لا أقصد هذا، أقصد أن النية من هذه الأسئلة افتعال مشكلة.

- لا، لكنني أحتاجُ إلى إجابات.

- أيوجد زوجة في هذه الدنيا لا تعرف إن كان زوجها يحبها أم لا؟!
- لو كُنت أعرف لما سألتك.
- أظنُ أنكِ تعرفين، لكنكِ تُريدين تأكيداً للإجابة فقط.
- فلتفترض هذا ولتُجبني، لماذا تُعقد الأمور؟
- نعم أُحبكِ يا ياسمين.
- لم أعد أشعر بهذا!
- أخبرتُكِ أنك تفتعلين مُشكلة!
- كُل ما أريده هو إجابة صريحة، أفي هذا اختلاق للمشاكل؟
- حسناً يا ياسمين، لقد أجبتك!، أُحبكِ يا ياسمين.

أردتُ أن أقول له ولماذا تفعل معي كل هذا؟ لماذا تكذب، لماذا تُخبىء، لماذا تخون؟، لكنني شعرتُ بأنني غير مستعدة بعد لحوارٍ كهذا، كُنت أعرف أن هذا الحوار يحتاجُ إلى أن أستعد له جيداً، أن أرتدي فيه عباءة الرحيل بأناقة وجبروت وثقة، ولم أكن تلك الليلة مُستعدة لذلك بعد، فليكن ذلك في ليلة أخرى!

من منا قادر على الإقدام على النهايةِ بقلبٍ شجاع؟!، من فينا قادر على أن يعد عدة الرحيل، أن يحزم مشاعره وأن يمضي قُدماً بعد أن يطفئ أنوار الماضي خلفه ويغلق الباب بلا عودة أو حتى التفاتة!

أُريد أن أرحل، أن أُنهي كل شيء، أن أعيش مستقبلاً لا ذاكرة فيه ولا حنين، أُريد أن أعيش مع طفلي حياة لا يُكبلنا فيها أحد من الماضي، حياة جديدة بوجه جديد وذكريات جديدة.

أُفكر كل ليلة، كيف أرغب بالنهاية إلى هذا الحد ولا أقدر على أن أخطو إليها؟!، كيف أُريد بداية أُخرى وأنا غير مستعدة لأن أضع نقطة النهاية؟!

كيف أستعد؟ كيف أجرؤ، كيف أتقدم بعينين مفتوحتين أو حتى مغمضتين؟!

أُمسك بيدِ صغيري وأنا أُفكر، كيف سأقدر على أن أسير بك إلى شاطئ الأمان وحدنا وبدونِ أن يُساعدنا أحد؟!

كيف سأحميك من مستقبل يُشبه الماضي؟!، كيف سأكون لك أباً قبل أن أكون لك أماً؟!

أعرف بأن لا حل آخر مع تلك النهاية، فإما أن أتقدم وإما أن تتقدم.. ولا تراجع في الأمر!

استيقظتُ في أحد الصباحات الكئيبة، صباحٌ من صباحات الانتظار، صباحٌ كُنت أُدرك فيه أنني مازلتُ عالقة فيه بالأمس، أنني ما زلت في المأزق نفسه الذي نمت ليلتي وأنا في قلبه.

صباحُ مأزق، لا أقدر أن أكون فيه على طبيعتي ولا قدرة لي أن أنتهي فيه من تلك الحالة.

أفتش في كُتب الأدب بحثاً عن كتابٍ يُبهجني، هُنا بؤس وهُناك كآبة، من قال إن الأدباء يكتبون فرحاً؟!

لا أذكر أنني قد قرأت رواية سعيدة النهاية أو حتى البداية!، فلِمَ أفتش في الروايات عما لم أجده فيها يوماً؟!

لِمَ نبحث في بعضِ الأحيانِ عن أشياء لم توجد أساساً وكأننا نحتاجُ لأن نكون أصحاب مُعجزة!

أشعر أحياناً وكأنه من الواجبِ عليّ أن أتوقف عن البحثِ عن أمورٍ يستحيل حدوثها في هذه الحياة، لا أعرف لماذا أنتظر دائماً المعجزات برغم سلبيتي وبرغم تشاؤمي وبرغم أنني امرأة تنظر إلى

الحياة نظرة ريبة دائماً، إلا أنني أشعر وكأنني أنتظر منها مفاجآتٍ بأمورٍ سعيدة كنهار!

أنا لم أخطط لوجودِ نهار، ولَكَم جزعت حينما اكتشفتهُ بداخلي، لكنه كان هبة عظيمة من الله سبحانه وتعالى ولن أقدر على أن أوفي شكرها يوماً.

لَكَم أتمنى أن أُغمض عيني لأجد أن القدر قد عجل بإصدار حكمٍ يُنهي فيه حيرتي حيال زواجي.

أتمنى أن تنتهي علاقة الزواج هذه بقدرة قادرٍ، أو أن تنتهي مشاكلي المعلقة فيها بقدرةِ قادرٍ أيضاً.

ربما لا أريد من القدر حلاً لمشاكلي الزوجية لكنني أُريده أن يُعجل في نهايته أو في إشارة واضحة يمنحني إياها ويُنبئني فيها بضرورة استمراري فيه.

أحتاجُ إلى نهاية أو نسيان كلّ ما حدث فيه، قطعاً أحتاج إلى النسيان! سواء استمر هذا الزواج أم انتهى، أنا أحتاج إلى الكثير من جرعات النسيان لأعيش وأنا أُقدر ذاتي من جديد.

أُفكر أحياناً، ما بال الرجال؟ لماذا يفسدون زواجهم بدمٍ بارد؟!

أُفكر أحياناً، ربما أمثالي من يجعلن الرجال بهذه القسوة، أمثالي المتسامحات، الضعيفات والمتفانيات هن اللاتي يجعلن الرجال يخطئون مرة ويكررون الخطأ عشرات المرات.

لو بصقت كل امرأة على زيجة لا تُحترم فيها لما تمكن أشباه الرجال من عدم احترامهن، لكنني لا أسامح مالكاً ولا أتفانى من أجله! كُل ما في الأمر أنني لا أُريد لطفلي نصف طفولة ولا نصف مراهقة ولا نصف رجولة، أُريده أن يستمتع بمراحل حياته تحت فيء أمه وظلالِ أبيه، أضعف هذا مني وتسامح لا يُحترم؟!

لا أعرف إن كان نهار سيُقدر لي هذه التضحية أم إنه سيلومني عليها، فكم من التضحيات التي يُقدم عليها الكثير من الآباء والأمهات يُقابلها اللوم والعتب حينما يكبر الأبناء وينضجون.

من يعرف شيئاً مما يخبئه لنا ولهم القدر؟!، لو كان أحد منا يعرف لما تعلق أحد منّا بهم ولأجلهم.

ما أقسى اليتم وما أبشعه!

أتساءل في أعماقي دوماً، ما الذي خلفه اليتم فيّ؟!، كيف استطاع اليتم أن يوشم داخلي بكل هذا النقص وكل هذا الخوف وكل هذا الألم؟!، كيف تمكن مني وكيف استطاع أن يشوه الكثير من ملامحِ طفولتي من دونِ أن يرحم فقدي أو يشفق على براءتي!

لم تكُن أمي أماً عادية قطّ، كانت امرأة مُناضلة، ناضلت من أجلِ أن تُحافظ علينا بدونِ أن تطولنا يد ذكورية لا تؤتمن، واستطاعت أمي أن تُحافظ عليّ وعلى شقيقتي بدونِ أن يُشاركها المسؤولية رجُل أو أن يُساعدها على تربيتنا أو على رعايتنا مادياً رجُل.

لم تتزوج أمي بعد رحيل أبي، ولم تسمح لإخوتها الذكور أن يسيطروا علينا أو أن يتدخلوا في تربيتها لنا، واستطاعت أن توقف أعمامي من أن ينتزعونا منها، هي المرأة الأرملة لثلاث بنات بلا أولاد يدعمن موقفها كأم وحيدة بلا رجُل في هذا المجتمع الذكوري القاسي.

من المدهش أن يكون الرضيع ذو الأشهر صمام الأمان لعائلة من الإناث في مجتمعنا، فلا سلطة تعلو سلطة الذكور فيه مهما علت سلطة الأنثى ومهما عظمت، في مُجتمعنا ترجح كفة الذكورة حتى لو كان يُقابلها في الكفة الأخرى أنثى عن ألفِ رجُل ورجل.

لا أنكر بأنني سعدتُ كثيراً عندما رزقني الله بنهار، لن أخفي ذلك عن أحد حتى لو وصمت بالعنصرية وبالجهل!

كُنت أحتاج لأن يكون بكري ذكراً أنا المرأة التي عانت كثيراً في حياتها لعدم وجود ذكورٍ في حياتي، فمُجرد وجود ذكر في البيت قادر على أن يحمي إناثه من القيل والقال حتى لو كان فاسداً أو كُن فاسدات!

لَكَم هو جائر هذا المجتمع! لَكَم هو قاس موروثه الاجتماعي الذي لا يُحل ولا يُفهم!، لَكَم من امرأة عانت فيه لعدمِ وجود رجل في حياتها، سواء كان ذلك باختيارها أو حتى رغماً عنها!

في مُجتمعنا ستظل المرأة ناقصة ما لم يوجد رجُل يُكملها، مهما علت في مناصبها وفي تعليمها وفي مكانتها، وهذا جائر، جائر جداً!

أنظر إلى نهار وهو يعبث بأسلاك التلفاز المفصولة وأضحك، أيعرف طفلي الرضيع أنني من يتكئ عليه في هذه الدنيا؟ ليس بفعلِ الحُب فقط بل بفعلِ العرف والتقليد والناس والمجتمع.

هذا الصغير جاء يوماً مني، أنا من يعتني به وأنا من سيعلمه الدين والأخلاق والقيم، لكنه سيكون مسؤولاً عني يوماً ولن أستطيع القيام بالكثير من الأمور إلا بإذنه، ليس باسم الدين بل باسم العُرف وباسم العادة.

الأعراف والعادات والتقاليد التي تُحركنا كدمى في مسرح العرائس، هي من زادت يُتمي يُتماً ومن زادت فقدي فقداً، ومن جعلت حياتي بلا أب حكاية حُزن بلا نهاية، وكأن اليتم بسيط وكأن الحُزن لا يكفي!

أذكر أول مرة مرض فيها صغيري، كان في شهرِهِ السادس وكان قد تعرض لوعكات بسيطة وسريعة في أشهره الستة القليلة الماضية، لكنه ولأولِ مرة يمرض فيها بهذه الشدة وهذه القسوة، لأولِ مرة أراه ينتفض بين يدي كعصفور يحتضر من شدةِ الحرارة، كُنت أراقب أنفاسه السريعة وعينيه الغائرتين وقلبي يلهج بالدعاء راجياً من الله الشفقة والرحمة والشفاء، كُنت أشعر بأنني قد أخسره في أية لحظة، كُنت أدعو الله أنِ لا يُعاقبني به وأن لا يجعل ابتلائي فيه.

أذكر كيف كُنت أركض فيه في أروقة الطوارئ وأنا أنتقل من مشفى إلى مشفى، وقد أجمع الأطباء على أن يغادر المشفى حالما تنخفض حرارته لترتفع بعد ساعتين أوثلاث بعد عودتنا إلى البيت وأعود للتنقل بين المستشفيات طوال الليل من جديد.

لم أكن أفهم حينذاك كيف كان يستقبل الأطباء ارتفاع حرارته المرعب ببساطة المعتادين رؤية ما هو أفظع من ذلك، كُنت أصرخ في وجوههم «تتعاملون مع الأمر ببرود لأنه ليس طفلاً لواحد

منكم»، لكنهم كانوا يصرون بأن ارتفاع درجة الحرارة ليس إلا ردة فعل طبيعية للالتهاب، وبأن معظم الأطفال في عُمر نهار يتعرضون لذلك لأكثر من مرة خلال عامهم الأول.

كان الأطباء يقابلون بكائي وخوفي بسخرية أحياناً وبشفقةٍ أحياناً أُخرى وهم يكررون الأسئلة نفسها بصيغ مُختلفة:

- لابد من أنكِ أُم للمرة الأولى!
- أهو طفلكِ الأول؟!
- لن تنتهي حالة خوفك هذه إلا إن أنجبتِ غيره!

كانوا يتعاملون مع ارتفاع درجة الحرارة وكأنه لا شيء!، حتى مالك، تعامل مع مرض نهار الأول ببرود لا يُعقل، كان يحاول طمأنتي بين الحين والآخر وهو يُصر بأنه سيتحسن بعد يومين أو ثلاثة مثلما قال لنا الأطباء!

كُنت أُفكر ماذا لو جرى لنهار شيء خلال هذين اليومين؟ ماذا لو تفاقم عليه المرض؟ ماذا لو تطور؟ ماذا لو تدهور؟ ماذا لو ارتفعت حرارته لدرجة أن يتشنج؟! قرأت مرة أن ارتفاع درجة الحرارة لا يؤدي إلى التشنج فحسب بل قد يؤدي أحياناً إلى إعاقة دائمة للأطفال، ماذا لو تعرض نهار إلى ذلك؟ هو الصغير غير القادر على التعبير عن ألمه وغير القادر على العناية بنفسه، هو الأمانة الضخمة المُعلقة في عُنقي!

أصبحتُ أُفكر كثيراً في الأطفال أخيراً، أُفكر في المشردين منهم، الجائعين، اللاجئين والمناضلين تحتَ نيران الحروبِ في أرجاء هذا العالم الصعب.. الحق أنني لم أُكن أفكر في هؤلاءِ قبل أن أُصبح أُماً، كُنت أستمع إلى قصصٍ تُدمي القلب في نشرات الأخبار وفي بعضِ البرامج التلفزيونية، كانت تزعجني تلك الأخبار كثيراً، كانت تهزني وكنت أذرف عليها الدموع، لكنني لم أكن أفكر فيها بعد ذلك كثيراً.

كُنت سريعة النسيان، أتجاوز تلك الأحداث بعد فترة قصيرة وكأن أولئك الأطفال لم يوجدوا يوماً!، وكأن تلك الحكايات انتهت إلى الأبد، لكنني اليوم أُفكر كثيراً، أهتم كثيراً، وتؤرقني كثيراً قصص الأطفال وهمومهم ومُعاناتهم أينما كانوا.

أصبحتُ أرى في مُعاناة كُل طفلٍ طفلي، وفي كُل مريض ولدي، وفي كل يُتيم يُعاني قسوة الحياة نهار، كُنت أشعر وكأنني بتُّ أماً لكل أطفال العالم، أُشفق وأحن عليهم وأحبهم مثلما لو كانوا أطفالي.

أنا لن أُحب أحداً بقدرِ ما أُحب ولدي، لكنني بت أرى من لم أكُن أراهم ، كُنت أعبر بين الأطفال سابقاً في اجتماعات العائلة من دون أن أرى أحداً من الأطفال فعلياً، لا أذكر أنني قد تبسمتُ في وجهِ طفل قابلته أمامي أثناء تسوقي، لا أذكر أنني قد لاطفت طفلاً

جلس بجواري على متن الطائرة، ولا أظن بأنني قد خففتُ من ألمِ طفل باكٍ قطّ.

اليوم يبكي طفلي مرضاً، فأبكي الخوف والقلق والعطف كله، أضع مُنبه هاتفي لأستيقظ كل عشر دقائق لأقيس فيها حرارته خوفاً من أن تعاود الارتفاع فجأة!

أراقب مالكاً النائم في سريره وأنا أهز على كرسي بجوار سرير نهار وأفكر، اليوم أعرف لماذا أوصى الرسول صلى الله عليه وسلم بالأمهات ثلاث مرات قبل أن يوصي بالآباء، لَكَم هي مختلفة مشاعر الأمومة عن مشاعر الأبوة مهما حاول البعض المساواة بينها.

حينما شُفي نهار، أطعمت ثلاثين مسكيناً كُنت قد نذرت أن أطعمهم في حال شفائه، سخرت أمي وشقيقاتي وصديقاتي مني «ستتخلصين من هذا الخوف حالما تُنجبي طفلاً آخر، فلتُنجبي طفلاً جديداً!».

كُنت أستمع إلى تعليقاتهن الساخرة تلك وأنا أُفكر، أسيحتمل قلبي أكثر من هذا الخوف ومن هذا الألم لو أنجبت طفلاً آخراً؟!

«الحُب في الأرض بعض من تخيلنا، لو لم نجده عليها لاخترعناه»..

ما الذي يعنيه أن نخترع الحُب يا نزار؟! ولماذا نخاف أن نعيش وحيدين في هذه الحياة؟! ما الذي يُخيفنا في تلك الوحدة؟! أهو الخوف من الحاجة؟! أم هو الخوف من الموت من دون أن يجاورنا أحد؟!

نحن نرحل عن هذه الحياة وحيدين، عندما نموت لا يرافقنا لمواجهة الخالق أحد، فلِمَ نخاف أن نعيش وحيدين طالما نغادرها وحيدين أيضاً؟!

لَكَم كُنت أخاف الموت!، كُنت أهابه كثيراً، عشتُ طوال حياتي أعاني بسبب خوفي منه، اليوم أنا لا أخاف الموت بقدرِ ما كُنت أفعل في الماضي، لكنني أخاف أن يعيش طفلي ما عشته من بعدِ الموت.

أنا لا أعرف كيف يعيش الطفل حياته من دونِ أم، مهما حاولت أن أعرف ذلك لن أستطيع أن أشعر به بدقة حتى لو كُنت قد عشت

يتيمة الأب.. صحيح أن اليتم يُتم، لكنني لا أظن بأن يتم الأب كيتم الأم أبداً.

ليس بالضرورةِ أن تكون الخسارة أكبر، لكن اليُتم هُنا يختلف، مشاعر الفقد قطعاً تختلف، وهذا ما لن أستطيع وصفه مهما حاولت ذلك، فمن يعش ذلك الفقد ليس كمن يحاول الإحساس به.

أنا لن أعيش وحيدة حتى لو أردت ذلك، تغيرت نظرتي إلى الحياة من بعدِ ما جاء نهار، أصبحتُ أحضر المناسبات العائلية التي لم أكن أحتمل حضورها، بتُّ أزور أهل زوجي أسبوعياً وهذا ما لم أكن أفعله إلا في الأعياد قبل مجيء نهار.

أحاول اليوم أن أمد يدي إلى العالم مُجدداً، أن أعود إلى الناس، أن أُصبح مثلهم، أسعى لأن أشبههم ليعيش طفلي كما يعيش الأطفال مع الأطفال.

هذا القرب المفاجئ جعلني أصطدم بوجوهٍ لم أكن أعرفها قبلاً، عرفت بعد الاحتكاك المباشر بالكثير من الناس أن لبعضِ الناسِ وجوهاً كثيرة، وجوهاً متقلبة، لئيمة، بشعة، وامرأة مثلي في هذا العالم لم تُكن لتُجيد التعامل مع أمثال هؤلاءِ.

عرفت أن ابتعادي عن الحياة الاجتماعية طوال حياتي جعلني بحاجة إلى الكثير من مهارات التعامل مع تلك النماذج غير السويّة، عشتُ خجولة طوال حياتي، كُنت فتاة هادئة وانطوائية أنتقي صداقاتي

بدقة لا يُضاهيها في العالم دقة، وحينما تزوجت أصبح مالك هو كُل حياتي، ابتعدت بعدها عن كُل شيء وعن أي أحدٍ سواه، لذا صُدمت كثيراً حينما حاولت العودة إلى الحياة الاجتماعية، صدمني كثيراً ما أصبح عليه الناس، لكنني، وعلى الرغم من ذلك حاولت أن أتنازل كثيراً لأجلِ نهار.

أنا لا يُخيفني أن أعيش بدون الناس، لكنني أخاف كثيراً أن يعيش ابني من دونهم، أمن الغريب أن لا أخاف الوحدة وأن أخشى على ابني منها؟

رُبما اعتدت الوحدة، وربما هي من اعتادتني، فالوحدة ليست إلا وجهاً من وجوه اليتم، وأنا لا أريد يتماً لطفلي، كل شيء وأي شيء عدا اليُتم!

استسلمت!

قررتُ أن أرمي ما مضى خلفي وأن أعيش الحُب كما لو أنه لم يُمس ولم يُكسر.

لم يكُن قراراً سهلاً قطّ ولم يكُن قراراً سعيداً أيضاً، كان قراراً قاسياً، فلا أقسى من أن يدوس الإنسان على كرامتِهِ وكبريائِهِ من أجلِ أحد.

قررتُ أن أُضحي هذه المرة، والحق أنني لستُ واثقة من نتيجة هذه التضحية، لكنه كان واجباً عليّ أن أتنازل، أليس الحُب تنازلاً، أليست الأمومة تضحية؟!

هذا ما علمته لنا أمهاتنا طوال الحياة، هذا ما لقننا إياه المجتمع، بل هذا ما أثبتته فطرة المرأة.

مددتُ يدي إلى مالك من جديد، حاولت أن أُحبه مُجدداً، من دون أن أواجهه بما عرفته عنه وعنا!

وجدته يلين، يقترب، يقضي وقتاً بمعيتنا أطول بكثيرٍ مما كان

يفعل في السابق، لكنه لم يُعد كما كان، مهما حاولت ومهما حاول لن يعود مالك مثلما كان وهذا قاسٍ، قاسٍ جداً!

كُنت قد قرأت يوماً قصيدة لدرويش يقول فيها «الحُب يولد كائناً حياً ويُمسي فكرة»، أفكر كيف أصبح الحُب فكرة؟ كيف بات الحُب ذكرى؟، كيف خسرنا حُبنا؟!

من المخيف أن تنتهي حكايتنا بهذه الصورة، حكايات الحُب لابد من أن تكون حكايات أبدية، لا يُنهيها إلا الموت ولا تُدمرها قوة على وجه الأرض، ولا أعرف لماذا دفن مالك حكاية حُبنا وهي حية!

لم يمضِ عُمر طويل بيننا لينتهي هذا الحُب أو يذبل، من المفترض أننا لانزال نعيش سكرة هذا الحُب، فلِمَ غادر مالك الحكاية وتركني أتخبط فيها وحدي بحثاً عن سبب!

لا أعرف ما الذي كُنت سأفعله لولا وجودِ نهار، أكُنت سأُغادر أم كُنت أفعل ما أفعله مع مالك الآن، أن أُغمض عيني وأن أحاول أن أبدأ بداية جديدة وأخرى معه.

أفكر دائماً، أكان مالك سيفعل الأمر نفسه معي لو أنني من خان؟!، أم كان ليُغادرني بلا عودة ولا رحمة ولا حتى ندم؟!

لَكَم بت أشعر بالوحدةِ معه، هو الذي تزوجته هرباً من الوحدة، غدوت الآن معه وكأنني إنسان آخر، إنسان يتصنع المشاعر

والحروف والملامح، لم أعد كما كُنت مثلما لم يعُد هو كما كان يوماً معي.

اليوم أشم رائحة النهاية، أشعر بدنّوها، أحاول أن أتمهلها طمعاً في حلٍ قد يوهب لنا من بعيدٍ في أيةِ لحظة، ولا أعرف حقاً إن كان سيحُل علينا حل أم ستسبق حلوله النهاية!

مسكين هذا الصغير! مسكين نهار الذي جاء بعدما فُضت بيني وبين أبيه الحكاية، جاء نهار في وقتٍ لم نكن فيه مستعدين لاستقباله، جاءنا ونحن نعد أمتعة الرحيل وفي وقتٍ لم يكُن نتوقع فيه مجيء أحد.

أشعر بالذنب تجاه نهار، أشعر وكأنني خذلته في إنجابه بعائلة متهالكة، ماذا عساي أن أقول لهذا الصغير؟ أسيُعزيهِ أن في الحياة الكثير من الأطفال مثله؟! أسيُخفف من ألمه أن يعرف أنني حاولت كثيراً أن أُبقي على ذلك الرابط؟! أسيعذرني حينما يعلم أن الذنب لم يكُن ذنبي وبأن الخيار قطعاً لم يكُن خياري؟! ماذا عساي أن أُسمي ما يحدث في حياتي وفي حياته؟!، أأقول له بأنه ليس إلا «محض فقد»!

كم من الصعب أن يتمّ إصلاح الكأس بعد كسرها!.. وكم هي واهية محاولاتي مع مالك!

أحاول وأحاول وأحاول معه، يعتدل حاله قليلاً ثم يعود كما كان، يعود إلي في حالات الرضا ويهرع إلى غيري في غضبه، اليوم أعرف بأن مالكاً لن يستقيم أبداً، لا قدرة له على أن يعيش الحُب باستقامة، أعوج هو، ضعيف جداً أمام الغضب.

أنا أُدرك أنني لن أعيش هكذا طويلاً، أتغاضى كثيراً لتستمر هذه الحياة، لكنني أعرف أنني سأنزل في محطة مغادرة ما، إلى مكان ما حيث لا يكون هُناك مالك، وأنني لن أُفكر بالعودة أبداً.

أنا أعرف أنني لن أعود إن غادرت، لذا أتمهل الرحيل، لذا أحاول أن أبذل كل ما يمكنني بذله، لكنه هناك في مكانٍ بعيد، بعيدٍ جداً، يفصلنا الكثير من الحفر والمتاهات والمصائد.

أضم نهاراً إلى صدري أحياناً لينهمر دمعي حاراً على شعره الناعم الجميل، أشعر بحرقة وأنا أعرف أنني لن أتمكن من منحه

الحياة التي أجزم بأنه كان ينشدها، لكنها الحياة، لا قدرة لنا على السباحة عكس تيارها ولا قدرة لنا على تحديها مهما بذلنا من جهد ومهما بلغنا من قوة.

لَكَم كان بودّي أن أُخبر نهاراً كم أنا آسفة على هذا المصير، أنا لم أختر قدري وحتماً أنا لم أختر قدره، تختارنا الأقدار ولا نختارها، لَكَم أخشى أن يلومني نهار أو أن يلوم نفسه، لم يكن الذنب ذنبي ولم يكن الذنب ذنبه، قد يكون الذنب ذنب مالك لكنني لا أريده أن يدخل هذه المتاهة، لا أريده أن يدخل معمعة التفكير فيمن غادر ولِمَ غادر، أريده أن يجتاز الفقد من دونِ تأنيب أو ملامة.

ألم يقل إيليا أبو ماضي «إن رب الأيتام مازال حياً»، وعلى الرغم من أن الطلاق وجه من وجوه اليتم، إلا أنني أعرف بأن الله هو الحي الدائم، وبأنه لن ينسى يتيماً أو فاقداً، لن ينساك الله يا نهار، ثق بأنه لن ينساك أبداً..

ما الذي تُريده الأمهات لأبنائهن؟! أتتشابه أحلام الأمهات ورغباتهن؟!

يدور في رأسي شريط، يحوي ملامح وأسماء وسلوكيات الأمهات اللاتي أعرفهن!، هُناك وجوه كثيرة للأمومة، لم يوزع الله الحُب والعطف والتضحية على أمهات العالم بالقدرِ ذاته، تختلف الأمهات في أشياء كثيرة ويتشابهن في أشياء كثيرة أيضاً، أكاد أجزم أن كُل أم ترى في نفسها أماً عظيمة، مهما أخطأت في أمومتها ومهما قصرت في حقِ أطفالها، وإلا لما فعلت شيئاً من هذا.

الأمومة ليست رسالة، وليست قضية، الأمومة هي أن تُشكل الأم إنساناً غضاً، أن تعلمه الحياة، أن تغرس فيه القيم، أن تجعله يشعر بإنسانيته من خلالِ أمومتها.

أذكر كيف أن أمي كانت تعاملنا في طفولتنا، في حياةِ أبي وبعد وفاته، كانت أماً مُحبة متفانية وحذرة، وحينما رحل أبي زادت محبة وتفانياً وحذراً، عندما توفي والدي تلبست روح لبوة، كانت تضمني

أنا وشقيقتيّ تحت ذراعيها وهي تزأر مُحذرة أي ظلٍ يحوم حولنا من أن يقترب أكثر.

كانت مسنونة الأنياب والمخالب، يقظة العينين طوال الوقت، تتلفت بحثاً عن غريب لا يؤتمن، أو عن رائحة غدر تقترب منا في أي وقت.

ربتنا أمي بتوجس وحذر، فكبرت مع شقيقتيّ متوجّسات حذرات، كنت أرى في قلقها وخوفها المبالغ فيه قيداً يُكبل حريتي المسلوبة أصلاً، كُنت أشعر بأنها تزيد خناقنا الضيّق ضيقاً، لكنني أفهم اليوم لماذا كانت تفعل أمي معنا كل هذا، بتلك الطريقة وبذلك الأسلوب.

عندما يصبح النساء أمهات، يقدرن أمهاتهن أكثر، يتصالحن مع أخطاءِ أمهاتهن ويغفرن لهن جروحاً سابقة عالقة.

تتغير نظرة المرأة إلى أمها حالما تُنجب، وكأنها تراها لأولِ مرة وبشكلٍ مُختلف للغاية، تتراءى لها كُل المواقف القاسية السابقة لتُعيد تشكيل مفاهيمها حيال تلك المواقف من جديد وكأنها تنظر إليها من زاوية جديدة وعين أخرى.

اليوم أنا أفهم جميع تصرفات أمي التي لم أكن أفهمها، كُل موقف بكيت فيه من قسوتها وصرامتها، أفهم اليوم لماذا فعلت ذلك وكيف شعرت وبما فكرت!

أفهم الآن كُل شيء، أراه بعينيها وأفكر فيه بعقلها وأنظر إليه نظرة بعيدة تتجاوز بكثيرٍ نظرتي القديمة تجاهه.

اليوم أُحب أمي أكثر، أخاف عليها أكثر، وأعرف أن حياتي كانت لتكون أكثر صعوبة لو لم تكُن أمي فيها.

أذكر اليوم الذي كُنت ألعب فيه بمُلحق بيت خالي أحمد، كان هُناك أبناء خالي الشباب وأصدقاؤهم، كُنت أفترش الأرض وأنا ألعب بعرائسي حينما دخلوا، سمعت صوت أمي يهدر فِزعاً وهي تُناديني من بعيد بينما كُنت ألملم عرائسي.

ركضتُ إلى أمي من دون تلك العرائس وبقلبٍ يرتجف من وطأة الخوف، أذكر كيف أمسكت بي وصفعتني لأولِ مرة وبكل ما أوتيت من قوة، صرخت في وجهي وهي تهزني من ذراعي: أين كُنت طوال هذا الوقت؟!

قلت لها وأنا أمسح الدمع الفار من عيني: كُنت في الملحق!

- أي ملحق؟!
- ملحق خالي! هُناك!
- وماذا كُنتِ تفعلين بالملحق؟!

قلت ببساطة: كُنت ألعب!

- ولماذا تلعبين بالملحق؟! من هُناك؟
- محمد ويوسف وأصدقاؤهما!

علا صوتها أكثر وهي تهزني بقوة: ومـاذا تفعلين عند الشباب؟!

قُلت لها وأنا أحمي وجهي بيدي خوفاً من صفعة مؤلمة أخرى: كُنت ألعب لوحدي ودخلوا الملحق وأنا ألعب!

- ولماذا لم تجيئي عندنا حالما دخلوا؟ لماذا بقيتِ هناكِ؟؟
- كُنت ألملم عرائسي وسمعتكِ تُناديني فجئت أركض.
- أكلمكِ أحد منهم؟!
- لا، دخلوا ثم ناديتني أنتِ.

أذكر كيف قضيت الليل بأكملهِ في التحقيق! كانت أمي تُعيد تكرار الأسئلة عليّ لتتأكد من إجاباتي، تحور الأسئلة وتُغير من صوغها لتتأكد من أن أحداً منهم لم يمسّني في شيء!

يومذاك شعرت بأن أمي هي أكثر أمهات الدنيا تعقيداً وقسوة، كرهتُ كثيراً ما فعلته معي، وظللتُ فترة طويلة تحت تأثير تلك الصفعة، لكنني أتفهم الآن كُل ما فعلته يومها وأتعاطف كثيراً مع موقفها ذاك.

اليوم أظن أنني لو كُنت مكانها لربما كُنت سأفعل الأمر ذاته، بالطريقة نفسها وكذلك بالفزع ذاته.. اليوم أعرف أننا نقسو على أبنائنا أحياناً خوفاً عليهم ولنحميهم من شرور الناس وغدر الزمن.

اليوم، أفهم أمي، أُقدر أمي، أسامح أمي وأُحب أمي أكثر بكثيرٍ مما كُنت أفعل يوماً.

أذكر مكالمتنا الأخيرة قبل أيام، كانت تشكو لي شقيقتي جوري وعزوفها غير المفهوم وغير المبرّر عن الزواج، كان قد تقدم لخطبتها رجُل ذو نسبٍ ومال وعلم ومنصب، ولم تكُن أمي تفهم لماذا تُصر جوري على رفض الخطّاب بلا تفكيرٍ ولا حتى سؤال.

قُلت لها: لا تشغلي بالكِ بالأمر يا أمي، لا ينال أحد من الدنيا إلا رزقه ونصيبه، لم يأتِ نصيبها بعد.

قالت بضيق: ولن يأتي نصيبها إن استمرت ترفض الخطاب بلا سبب.

- ألم تقل لكِ إنها تُريد أن تكمل الماجستير أولاً؟!
- هذا ليس مبرّراً، تستطيع أن تتزوج وأن تُكمل دراستها.
- وما المانع في أن تُكمل دراستها ومن ثم تتزوج؟
- جوري ليست صغيرة يا ياسمين، ستتم جوري الثلاثين قريباً!
- معظم صديقاتي اللاتي في عُمري وأنا أكبرها بعام كامل لم يتزوجن بعد، وأنتِ تعلمين أن فتيات هذا الجيل لا يتزوجن مُبكراً، فلِمَ تُصرين على أن تتزوج الآن وكأنها آخر بنات جيلها العازبات؟!

- صديقاتُكِ وصديقاتها لسن يتيمات يا ياسمين، ولديهن أشقاء، أنتن بحاجة ماسة إلى الرجال في حياتكن يا ياسمين ولن يحدث هذا إلا بالزواج!

ابتسمتُ وأنا أستمع إلى أمي، أستمع إلى حسن ظنها في الـزواج، هي التي مضت عقود على آخر أيام قضت فيها أياماً زوجية، هل تغيرت خريطة الزواج يا أمي؟! أتختلف زيجات جيلكِ عن زيجات جيلنا؟ أكان أبي زوجاً عظيماً لتتوقعي أن يكون كُل الأزواج مثله؟!، أم إن كُل ما في الأمر أنكِ نسيتِ كيف كانت طبيعة الزواج؟

انتشلتني أمي من أفكاري وهي تتمتم بإحباط وسخط: أعرف أنكِ لن تفهمي مشاعري ولن تشعري بما أشعر به الآن!

- بل أفهم مشاعرك جيداً، أنا أيضاً أم وأتفهم خوفكِ عليَّ وعلى شقيقتي.

كُنت أُريد أن أخبرها كم أنا آسفة على كُل المواقف التي أسأت فيها تفسير فعلها.. أردتُ أن أخبرها أنني أسامحها وبأنني أحتاجُ لأن تُسامحني على سوء ظني بردودِ أفعالها في طفولتي وفي مراهقتي، لكنني لم أفعل!، ربما خجلت من أن أُصارحها بأفكاري الطفولية والمراهقة أو رُبما ظننتُ أنها ستُسامحني من دون أن أطلب منها السماح كالعادة!

اليوم أعرف أنّ أمي تسامحنا من دونِ أن نسألها السماح، وأنّ أمي تغفر لنا من دونِ أن نطلب منها مغفرة، وهذا ما أظن بأن الأمهات يتشابهن فيه، هُنا تتشابه الأمهات، أنا وأمي وهُن!

حينما أتأمل الحياة، أجد أن هُناك أموراً كثيرة يتوقف عندها الإنسان طويلاً، يتوقف عندها بحثاً عن إجابات حاسمة، إجابات مُريحة، نهائية وشافية، إجابات يتوقف عندها بدونِ أن يُراجع الإجابة ألف مرة ومرة، وبدونِ أن يحتار حيال حقيقتها أو يبحث عن أُخرى بديلة عنها.

هكذا هو الإنسان، لحوحٌ هو في رحلة الحياة، شغوف في البحثِ عن إجاباتٍ تُجيب عن كُل ما فيها، والحياة لم تُخلق لمثلِ هؤلاء، ولا لمثلِ هذه الأسئلة.

أُفكر أحياناً، كيف تتغير أقدار الإنسان فجأة؟!، كيف تنتقل من أقصى اليمين إلى أقصى اليسارِ بلمحة؟! من آخرِ حدود الفرح إلى أقصى حدود التعاسة؟!

أنا مؤمنة بأن الله قادر على أن يُغير الحال في لحظة، وبأنه قادر على أن ينتشلنا من وحلِ الهم ليصب فوق رؤوسنا الفرج مطراً، أؤمن بأنه قادر على أن ينزع الفرح منا فجأة ليبتلينا في هم طارئ نغرق

فيه بانتظار الرحمة!، ولهذا أنا أخاف كثيراً من تقلب الأحوال ومن تغيرها المفاجئ.

أخاف كثيراً من أن يتغير حالي إلى الأسوأ، أنا التي كُنت أظن بأنني أعيش الهم خاماً، بتُّ أعرف اليوم أنّ الله قد أنعم عليَّ بكثيرٍ مما حرم غيري منه، وأخاف كثيراً أن يستعيد الله كُل هذا مني فجأة مثلما أخاف كثيراً من الحقائقِ التي تنكشف لنا بدونِ أن نسعى إليها أو أن نرغب في معرفتها.

أذكر ذلك اليوم جيداً.. اليوم الذي منحني الله فيه حقيقة قاسية بدونِ أدنى جهدٍ مني..

كان مالك يستحم بعد عودته من العمل، بينما كُنت أتفرج على التلفاز بانتظاره، كُنت بمعية نهار الذي كان يفترش الأرض وهو يلعب بهاتفِ أبيه المحمول.. علا صوت رسالة نصية من هاتفِ مالك فسحبته من يدِ نهار لأجد رسالة باسم «سلطان الجميل» تظهر على الشاشة، كتب فيها «اشتقتُ إليك يا عمري!»

لم يكُن هُناك رسائل أخرى بين مالك وصاحب هذا الرقم، كان من الواضح أن مالكاً قد محى كُل الرسائل والمحادثات السابقة بينه وبين المرسل، مثلما كان جلياً أن «سلطان الجميل» هذا لم يكُن إلا «سلطانة جميلة»، وإلا لكان مالك شاذاً حتماً، وهذا ما لا أعتقده أبداً!

فكرتُ في أن أمسح الرسالة كي لا يعرف مالك أنني من قرأها

لكنني تركتها له هذه المرة، وتركتُ له أن يخمن عمّن استقبل تلك الرسالة الحميمة، تركتهُ ليخوض في أفكاره وأعدتُ الهاتف إلى يدِ نهار وأنا أشعر بالسوء لتلطيخ يديه الطاهرتين بكُل هذه القذارة.. كان نهار النقي يلعب بالهاتف كلعبة طفولية مُمتعة وهو لا يُدرك أنها ليست إلا أداة خيانة لرجُل ضعيف النفس ومسلوب الإرادة، رجُل شاءت الأقدار التعيسة أن يكون والده.

سمعتُ خطوات مالك وهو مُقبل علينا، التفت إليه وقُلت له ببرودٍ وقبل أن يجلس: هاتفك مع نهار، يبدو أن رسالة قد وصلتك!

مشى مالك حيثُ نهار، جاء به وجلسا بجواري وهو يقلب هاتفه، امتقع وجه مالك وهو يقرأ الرسالة، اسودّ وجهه بشدة، قال مفتعلاً المزاح: شيطانٌ هذا الصغير!، يعرف كيف يفتح الرسائل، أتوقع بأنه يحتاج إلى شهرين آخرين ليُراسل أصدقاءه عن طريقِ هاتفي!

قُلت: لربما يُراسل صديقاته أيضاً!

ضحك مالك، أو تضاحك، فتح مواضيع كثيرة في تلك الجلسة، كان يتنقل بين المواضيع بسرعة، يثرثرُ كثيراً على غير العادة، وهو يتأملني كما لم يفعل يوماً، كان من الواضحِ أنه يبحث في ملامحي عن شيءٍ يطمئنه بأنني لستُ من فتح الرسالة وبأنني لم أقرأها، بينما كُنت أفكر، لماذا يخونني مالك إن كان يخاف خسارتي؟!

لم أحاول أن أبدو كعادتي ولم أحاول أن أظهر انزعاجاً، هبطت عليّ طاقة خالصة من البرود، لم أنفعل، لم أحزن، لم أتألم، لكنّ شيئاً في أعماقي كان منزعجاً ،كان مُتأذياً ومُتضرراً، شيئاً لم أستطع تفسيره ولم أفهم كنهه، شيئاً أظن أنه يتعلق بكرامة الإنسان وبتقديرِهِ لذاته، شيئاً لا يتعلق بالحُب ولا بحسن الظنِ أبداً!

حينما قام مالك لينام أو ربما ليرد على سلطانته، أخذت أُفكر في نفسي، إلى متى سأسمح لهذه المهزلة بالاستمرار؟! إلى أي حدٍ سأتحمل؟! ومتى سأنتهي من كُل هذا الهراء؟

ها هي كُل الإشارات تلوح في وجهي بأن مالكاً لن يتغير، فلماذا أقاوم فكرة الرحيل وكأن العالم يقف على حدودِ مالك؟!

إن كُنت قد تعلمت شيئاً في هذه الحياة فلن يكون بالتأكيد إلا أن الحياة لا تليق ولا تلين إلا للشجعان، تحترم الحياة الشجاعة، والقلوب القوية والعقول الواقعية.

تُحب الحياة الجريئين، تُطأطئ رأسها أحياناً لهم، وتغض الطرف كثيراً عنهم، وأنا أحتاجُ إلى الكثيرِ من الجرأة لأستطيع التعامل مع هذه الحياة، الكثير والكثير منها ، أنا أحتاجُ إلى تاريخ جديد، وإلى محو تاريخي كُله مثلما محا مالك رسائل حبيبته بضغطة زرٍ وبثانية واحدة، أحتاجُ إلى أن أبتدئ حياتي بمولد نهار ونهايةِ زواجي من أبيه.

أحتاجُ تاريخاً جديداً، لِمَ لا يُباع التاريخ إلى من يحتاجه؟!

أخذتُ نهاراً لزيارة أمي، كُنت أراقبها وهي تلعب معه كفتاة صغيرة، تضع أنفها على رقبته الصغيرة وهي تشمه بحُبٍ لا يوصف، تضمه بين الحين والآخر وهي تحمد الله وتسمي عليه باسمه.. كان حُب أمي لنهار حُباً خالصاً لا تشوبه في الحُب شائبة، تهرع إلي ما إن أدخل منزلها، تأخذه من بين يدي وهي تمطره بقبلاتها الحارة، تأخذه إلى داخل البيت وهي تلاعبه ولا تذكر أنها لم تُسلم عليَّ أو حتى أنها لم تلتفت إلي!

قُلت لها وهي تُدغدغ بطنه: ألا تلاحظين شيئاً غريباً؟!

- بلى، لاحظت أن وزنه في تراجع، ربما لأنه في مرحلة التسنين!
- لا ليست هذه الملاحظة.
- ما الأمر إذاً؟
- ألا تلاحظين أنكِ ركضتِ به إلى الداخل من دونِ أن تُسلمي عليّ!

فتحت ذراعيها وهي تضحك: حبيبتي!، لا تلوميني حينما أرى نهار لا أرى غيره أبداً.

قمت لأقبل رأسها ويدها، قُلت: صحيح إذاً أن معزة الحفيد تفوق معزة الولد!

- الحق يقال، مقولة صحيحة ألف بالمئة!

- أتحبينه أكثر مني؟

- الصراحة نعم! أحبه أكثر منكِ ومن أختيكِ، عسى الله أن يرزقني رؤية أبنائهما قريباً.

- آمين.

صمتُّ وأنا أراقب نهار الذي يتعلق بشعرها وهي تضحك، كانت هناك طاقة كبيرة من المحبة بينهما، كان يُحبها كثيراً، يصفق بديه حينما يراها، مثلما كانت تنقلب إلى فتاة صغيرة حالما تراه.

قُلت لها: ألن تتضايقي من نهار لو أقمنا عندكِ في البيت؟

قالت بفرح: أتضايق؟!، مُباركة تلك الساعة التي تنامون عندي فيها يا ياسمين.

- لا أقصد أن ننام فقط، أقصد أن نعيش هُنا إلى الأبد.

عقدت حاجبيها وهي تلملم شعرها الذي قام نهار بنكشه: لماذا إلى الأبد؟ ماذا حل ببيتكم؟

صمتُّ فقالت عابسة: أحدث بينكِ وبين مالك شيء؟!

- حدثت بيني وبين مالك أشياء كثيرة!
- فجأة؟!
- بالطبعِ لا يا أمي، ليس بشكل مفاجئ، فمن أولِ شهورِ زواجنا كانت تحدث بيننا مشاكل كثيرة.

قالت بعصبية: وما دامت الأمور سيئة منذ أول شهور زواجكما لِمَ صبرتِ كُل هذه المدة؟! لِمَ أنجبتِ طفلاً لا ذنب له؟!

- أنتِ تعرفين أنني حملت بلا تخطيط يا أمي.
- لا تحمل امرأة بالخطأ يا ياسمين، لماذا صبرتِ ثلاث سنوات حتى حملتِ بطفلكِ ومن ثم اكتشفتِ أنه كان حملاً بلا تخطيط؟!، لماذا انتظرتِ أن تحملي قبل أن تتركيه؟
- ظننتُ بأنه سيتغير!
- صبرتِ ثلاث سنوات قبل الحمل بانتظارِ أن يتغير، وقررتِ أنه لن يتغير بعدما ربط بينكما طفل صغير؟!
- هذا هو قدرنا، نصيبنا أن يحدث هذا، هذا الأمر ليس بأيدينا!
- لا يا ياسمين، أنتِ من اخترتِ هذا القدر، حذرتُكِ كثيراً من هذه الزيجة وأجبرتني أنتِ على أن أوافق عليها، قضيتِ مع مالك ثلاث سنوات قبل أن تحملي بابنه، والآن تأتين إلي لتُخبريني أنكِ قررتِ الطلاق بعدما أصبحتِ أماً؟!

- لستُ الأم المطلّقة الوحيدة في هذا العالم، وليس نهار الطفل الوحيد بين أبوين مطلّقين.
- أنا أيضاً لم أكُن الأرملة الوحيدة في هذا العالم، وأنتن أيضاً لم تُكنّ اليتيمات الوحيدات فيه، ورُغم ذلك عشتُ معكن حياة صعبة.. قاسيت في هذه الحياة وعانيت كثيراً في تربيتكن وحيدة والآن تأتين لتعيدي مع طفلكِ الحكاية نفسها والفرق الوحيد بيننا أنني ترملتُ رغماً عني بينما ستطلقين أنتِ بإرادتكِ وباختياركِ!
- ظننتُكِ ستكونين عوناً لي يا أمي، انتظرتُ منكِ دعماً!
- لن أدعمكِ في هذا الموقفِ أبداً يا ياسمين، لن أقبل بأن يعيش نهار كما عشتِ بدون أب، لن أساعدكِ في الطلاقِ أبداً أبداً.
- لقد قُلتها بنفسك، رغم أنني عشتُ بلا أب ها أنا بخير وأم لطفلٍ جميل، ما المشكلة في أن يعيش ولدي بلا أب، ما دمتُ قادرة على أن أربيه كما ينبغي؟!
- ومن قال إنكِ بخير؟ ومن قال إن شقيقتيكِ بخير؟! أختاكِ اللتان تهربان من الزواج كَيلا تصبحان أمهات مكلومات مثلي؟ من قال إنني لا أعرف بأنهما تخشيان أن يعلقهما القدر بتربية أطفال بلا آباء مثلما علقت أنا معكن؟، من قال إنكِ بخير؟ أنتِ التي عشتِ حياتكِ في غرفتكِ خلف

الأبواب الموصدة؟ أنتِ التي لم تُعالجي مشاكلكِ في الإنجاب خوفاً من أن تصبحي أماً لأيتامٍ مثلما كُنت أنا أماً لكن؟!

- أن أعيش مثلما عشتِ خير لي من أن أعيش مع رجُل خائن، أتقبلين لي هذا يا أمي؟؟ أتقبلين لي أن أعيش هذه الحياة؟!

لوحت بيدها بانفعال: لا تحكي لي شيئاً، لا أُريد أن أعرف ما حدث بينكما، ولا أُريد أن أعرف عن مشاكلكما شيئاً، كُل ما أريده هو أن تنسي هذا الموضوع تماماً، وأن لا تفكري في أن تفتحي موضوع الطلاق معي أو مع غيري أبداً، هذا الموضوع منتهٍ تماماً، لا نقاش فيه ولن يحدث يوماً، إذهبي إلى بيتكِ وحلي مشاكلكِ مع زوجكِ بدون طلاق، أو استمري معه بدونِ حلول، المهم أن لا يتربى هذا الطفل بلا أب.

رأيتها تقوم من مكانها وتناولني نهار بقوة وهي تربط شعرها بعصبية، قالت وهي تتجه إلى غرفةِ نومها: أنا مُتعبة، سأنام قليلاً، اعتبري نفسكِ في بيتكِ!

دخلت أمي غرفتها وأوصدت الباب بقوة، فشعرتُ وكأنها أغلقت في وجهي كُل أبواب الحرية التي نشدتها، كانت ردة فعل أمي قاسية صارمة وحاسمة، فشعرتُ وكأنني أغرق في المركبِ وحدي، بلا مساعدة ولا طوق نجاة.

كم صعّبت عليّ أمي الأمور!، أغلقت في وجهي باباً لطالما انتظرت أن يمنحني الله الجرأة كي أفتحه!

كُنت أستصعب الطلاق خوفاً من الوحدة، وحينما جاء نهار استصعبته كثيراً من أجله، واليوم يبدو الطلاق مستحيلاً لأجلِ نهار ولأجلِ أمي معاً!

لم أكن أتوقع ردة فعل أمي هذه، لم أتوقع أن تزيد الأمور سوءاً وصعوبة، لم أتوقع أن تُقابل شجاعتي المفاجئة بكُل هذا الرفض؟! لم أكن أتوقع أن تستكثر عليَّ الحرية!، أنا التي لطالما عشت سجينة تحت ظلالِ اليتم والخيانة.

لكنني ورغم ذلك الرفض، أتفهم غضب أمي، أتفهم خوفها من أن أعيش ويعيش طفلي نسخة منها ومني، لكنني لستُ هي!، لم أعد أشبهها، ظروفي ليست كظروفها هي، صحيح أنني أتكئ على رضيع، لكنه ذكر في مجتمع لا يؤمن إلا بالذكورة، وهذا قد يجعل حياتي أكثر سهولة مما كانت عليه حياتها وحياتنا.

أنا لن أقدر على أن أترك مالكاً بدونِ رضا أمي، يكفي أنني تزوجته بدونِ رضاها، لن أتطلق منه بدون رضاها أيضاً، كُنت قادرة على إجبارها أن أُغادر بيتها إلى بيته، لكنني لن أستطيع إجبارها على أن تستقبلني في بيتها بعدما أخرج من بيته هذه المرة.

اليوم، أغبط جوري وزهور كثيراً على إعراضهما عن الزواج، كانتا محقتين في مقاومة الفكرة وفي معارضتهما لزواجي أيضاً.. أُراقب شقيقتيّ اليوم لأجد أن كُل همومهما تنصبّ على دراستيهما العليا وعلى مشاريعهما الخاصة، تنصبّ همومهما على نفسيهما، لا على غيرهما مثلما تنصبّ همومي أنا.

كان زواجي من مالكٍ خطأً جسيماً، خطأً عظيماً لا يُغتفر، اليوم أرى مالكاً وأفكر، لماذا تزوجت رجُلاً لا يُشبه إنسانيتي؟ إنه رجُل خليط، رجُل نتيجة، رجُل تشوبه الكثير من التجارب.

كيف تزوجته، أنا المرأة الخام، المرأة النقية، المرأة التي لا يشوبها في الحياة إلا الفقد، لِمَ تزوجتُ رجُلاً خبيراً وأنا غرة؟ لِمَ تزوجتُ رجُلاً خائناً وأنا امرأة لا تعتدُ إلا بالوفاء وبالولاء؟!، لِمَ تزوجتُ رجُلاً لا يُشبهني؟!، كيف فعل بي الحُب هذا؟ كيف جرّني إلى عالمٍ لا أعرفه؟ أنا المرأة الحذرة، الحريصة، والمتوجسة من كُلِ شيء لا أعرفه في هذه الحياة، كيف أقدمتُ على أن أكسر القاعدة، كيف كسرتها وغامرت بزواجٍ لا يضمن فيه أحد شيئاً!

أذكر ليلة زواجي جيداً وكأنها كانت البارحة، أذكر أمي حينما جاءتني في غرفتي، جلست على طرف سريري وهي تطقطق أصابع يديها توتراً وحُزناً على فراقي وربما حزناً على اختياري أيضاً!، قالت لي بصوتٍ دامع :

- الله يوفقك ويسعدك يا حبيبتي.

قُلت لها مُمازحة لأخفف من مرارة اللحظة: تبدين سعيدة لأنك ستتخلصين مني أخيراً!

قالت والعبرة تخنقها: يعلم الله كم أن فراقك صعب يا ياسمين، أشعر بأن روحي ستُنتزع مني.

- لا تقولي هذا الكلام يا أمي، سأزوركِ كل يوم، وستملّين رؤيتي ولن يتغير عليكِ شيء.
- أُريد أن أوصيكِ يا ياسمين على شيء.
- وصايا زوجية؟
- وصايا زوجية وغيرها!
- قولي يا أمي أنا أسمعك.
- أولاً، انتبهي إلى بيتك وزوجكِ يا ياسمين، ولا تفشي أسرار بيتكِ لأي شخص أياً يكن، كوني بئراً عميقة لزوجك مهما رأيتِ من عيوب فيه، لا تضعفي يوماً ولا تفشيها لأيٍ كان.
- وماذا أيضاً؟!

- الأمر الثاني والمهم، أنتِ من اختار هذا الزواج يا ياسمين، أصررتِ عليه رغم معارضتي له، لذا أقول لكِ مهما حدث بينكِ وبين مالك، لا تفكري يوماً في أن تتركي بيتك أو أن تفكري بالطلاق، لا تتركي زوجكِ إلا للموت يا ياسمين، الطلاق ليس خياراً أبداً.

أذكر أنني قُلت لها بأن هذا لن يحدث أبداً، وبأن الحُب الذي جمعنا لن يقدر شيء في الحياة على أن يفرقنا بسببه، أذكر أنني قُلت لها بحُب وبحماسة، إنني أعرف مالكاً جيداً وبأنني أُدرك أنه لن يخذلني يوماً ولن يجرحني أبداً.

اليوم وبعد مرور أربع سنواتٍ على الزواج، أعرف أنني لم أعرف مالكاً يوماً، وأنّ الحُب الذي جمعنا لم يكُن إلا تجربة من تجاربه، صحيح أنها التجربة الوحيدة التي أفضت بهِ إلى الزواج، لكن هذا لا يجعل هذه التجربة حباً قطعاً.

دخل مالك البيت وأنا ألعب مع نهار، قبلني وجلس يلاعب نهار المأخوذ بملمسِ عشب الحديقة تحت قدميه العاريتين، قال وهو يلاعبه: ألا تلاحظين بأن رجليه مقوستان؟

- لا أظن هذا!
- راقبيه حينما يمشي!
- ليس إلا طفلاً في شهرهِ العاشر، كُل الأطفال في عمره من حديثي السنّ يمشون كالبطاريق!

- اعرضيه على الطبيب حتى نطمئن.
- حسناً!

وضعه على الأرض وقال وهو يمسح شعر رأسه: بالمناسبة، سأذهب مع أصدقائي إلى المخيم الليلة وسأعود السبت مُتأخراً.

- أستباتُ هناك؟!
- أخبرتُك أنني سأعود السبت ليلاً يا ياسمينة.
- أستقضي ليلتين في المخيم؟

قال وهو يُشير بأصابعه وكأنه يُعلم طفلاً صغيراً العد: خميس، جمعة، سبت! نعم، ليلتين!

قُلت وأنا أهز كتفيّ بلا مُبالاة: مع ألف سلامة!

- تبدين مستاءة من هذا!
- ولماذا أستاء؟ لقد اعتدت ذلك، هذه هي المرة الثالثة التي تقضي فيها الأسبوع في الصحراء خلال شهر واحد.
- حسناً، سأقوم لأُعد حقيبتي وأتجهز قبل أن أسمع منكِ كلاماً لا يُعجبني.

أدار مالك ظهره متجهاً إلى داخل البيت، حينها وحينها فقط، شعرتُ بأن بركاناً عظيماً انفجر في داخلي، قُلت له بصوتٍ عال: لا أعرف أي مُخيم هذا الذي تقصده في منتصفِ صيف نجد؟!

قال مُلتفتاً: ما الذي تقصدينه؟!

- أتعرف كم الحرارة اليوم؟
- لا أعرف ولا أُريد أن أعرف.

قُلت له وأنا أرفع هاتفي إلى وجهه: درجة الحرارة الآن، ونحن في بداية الليل، ثلاثة وأربعون درجة!

- وماذا يعني هذا؟
- أخبرني أنت ما الذي يعنيه هذا؟! أنت الرجُل الذي ينام تحت التكييف البارد حتى في منتصف الشتاء، أخبرني ما الذي يعنيه هذا؟

أدار مالك ظهره مُتجاهلاً إياي ودخل البيت، لحقته وأنا أصرخ: يعني أنك لم تكن تذهب إلى المخيم وأنك لن تذهب إليه، يعني أنك كاذب، يعني أنك خائن، يعني أنك غبي لأنك تظن أنني أصدقك!

التفت بوجهٍ ممتقع وصرخ: أي شيطان هذا الذي تلبسكِ هذه الليلة يا ياسمين؟! أجننتِ فجأة؟

- بل عقلت فجأة، لطالما أردتُ أن أخبرك كم أنت مقرف! كم بت أكرهك، كم يُقززني معشرك، كم يخجلني أن تكون أباً لطفلي.

صرخ في وجهي: ياسمين! انتبهي لما تقولينه وتأدبي معي.

- من يتحدث عن الأدب هُنا؟!، أنت؟! أتُريدني أن أخبرك كم امرأة عرفت، كم رسالة قرأتها في هاتفك؟ كم من مرة سمعتُك تتحدث فيها على الهاتف؟ كم وكم وكم؟

- ياسمين ابعدي عن وجهي واستعيذي من الشيطان الرجيم!

- اذهب! لا تتأخر على المخيم، لكنني أريد أن أقول لك شيئاً مهماً قبل أن تذهب، أنا لم أحتمل حياتي معك إلا لوجود ابني فيه، ولن أستمر معك إلا لأنه بيننا، أريدك أن تعرف أنني أكرهك، أكرهك كثيراً يا مالك.

صعد مالك الدرج المؤدي إلى الطبقة الثانية بخطواتٍ سريعة، خطواتٍ مصدومة وخائفة.. كان من الواضحِ أنه لم يشك يوماً في أن امرأة ساذجة مثلي قد تكتشف خيانة لرجُل مثله.. كان يظن بأنه سيخونني العُمر كله من دونِ أن أعرف يوماً، ليس لأنه ذكي بل لأنني ساذجة في نظره، لم يتجاهلني مالك بصعوده إلى الأعلى، بل هرب مني، انسحب وتقهقر كقطةٍ خائفة.

رميت نُفسي على الأريكة الكسولة في الصالة الصغيرة وأنا أفكر، لماذا انفجرت الآن؟! لماذا جاهرتُ له بضعفي، بقبولي طوال هذه المدة بخيانته واستمراري معه رغم تلك المعرفة، الآن بات يعرف مالك أنني مضطرة للعيش معه، فمن هي التي تقبل بالعيش مع زوج خائن إلا أن كانت امرأة مُضطرة؟! وهذا الاضطرار سيُضعف موقفي كثيراً أمامه، هو الذي كان يُخبئ عني الخيانة خوفاً من خسارتي، الآن يعرف أنني لستُ قادرة على الرحيل، وأنني أضعف بكثير من أن أترك حياتي التعيسة والبائسة معه.

نزل مالك بعد قرابة ربع ساعة أو ربما ثلث الساعة، كان يحمل حقيبته الصغيرة بيده وجبينه يلمع من عرق المواجهة الذي يبدو أنه لم يجف من هولِ المفاجأة.. قال لي وهو يلوح بمفاتيح سيارته: على فكرة، كُل ما قلتهِ هراء، هذه الأفكار لا توجد في الواقع إلا في رأسكِ.

- حقاً؟
- سأغيب ليومين، أتمنى أن تفكري أثناءهما جيداً فيما قُلتهِ لي يا ياسمين، وبعدها نتفاهم.
- لا يوجد شيء نتفاهم عليه، من الآن فصاعداً لا يربطني بك إلا نهار ولا شيء غير نهار.
- خير إن شاء الله، نتفاهم يوم السبت بإذن الله، أين نهار أريد أن أسلم عليه قبل أن أغادر.

أين نهار؟!..

أين نهار؟!.. أين نهار؟!.. أين نهار؟!.. شعرتُ بالسؤال يصدح داخل رأسي، يتردد صداه بعيداً، خافتاً وقاسياً في الوقتِ نفسه.

أين نهار؟!..

جاءني سؤال مالك كصفعة، صفعة لم تُدر رأسي فقط، صفعة أدارت روحي وعقلي معاً، شعرتُ بجسدي ينكمش، بأنفاسي تضيق، شعرتُ وكأن الدنيا تدور وتدور وتدور ولا قُدرة لي على أن أُميز شيئاً حولي أو أن أتوازن، قمتُ وأنا أجر قدمي الثقيلتين بفعلِ

السؤال، رحتُ أركض وأركض وأركض إلى حديقة البيت، شعرتُ بأن المسافة هي أطول مسافة تربط بين مكانين وبين شخصين وبين نقطتين، رحتُ أركض وأنا أفكر بالحياة والموت، وكذلك باليتم وبالطلاق، أركض وأنا أفكر في وجهِ أبي البعيد، بملامحه التي ظننتُ أنني نسيتها، ملامحه التي لطالما أبت أن تحن عليَّ وأن تزور ذاكرتي المتهرئة بفعلِ الوجع، رحتُ أركض وأنا أفكر في أولِ يوم قابلت فيه مالكاً، في أول مرة سمعته يقول لي فيها أحبكِ، في ليلة زواجنا، في أول مرة عرفت فيها أنه يخونني، في اليوم الذي عرفت فيه أنني حُبلى بنهار، في أول يوم سمعت فيه دقات قلبه الصغير، في اللحظة التي صرخ فيها صرخة الحياة، اللحظة التي وضعوه فيها على صدري لتلتقي أعيننا لأولِ مرة، كنت أركض وأنا أفكر في أمي، وفي وجهها الخائف من أن يعيش نهار فقداً يُشبه فقدي، ركضت وأنا أفكر في نهار، رائحته التي لا تشبهها في الدنيا رائحة، في أصابعه الصغيرة التي تقبض على أصابعي كل يوم بقوة من يخشى أن ينفلت عني، كُنت أفكر في عينيه، في الفرح الذي يملأهما من دونِ أن أبذل أي جهد، في العالم خلف عينيه الذي كان يسحبني إليه في كُل مرة أنظر فيها إليه، كنت أفكر في نفسي وأنا أركض، في الحياة الكئيبة التي كُنت أعيشها والتي تلونت حينما جاء نهار، كُنت أفكر في كُل الأشياء التي كنت مستعدة للتضحية بها لأجله، وفي كل الأشياء التي سأفعلها من أجله، كنت أركض وأنا أُفكر بالأحلام وبالآمال وبالأمنيات التي

أضعها في نهار وأراها فيه، ركضت وركضت وركضت حتى وصلت إلى حيثُ كان يلعب، كانت ألعابه منثورة على الأرض، وقنينة الحليب تنام على العشب بسكونٍ لا يوصف، لم يكُن هُناك نهار، لم يكُن في مكانه، في تلك الحديقة الصغيرة التي كان يلعب معي فيها قبل أقل من نصف ساعة.

خشيتُ كثيراً أن ألتفت، شعرتُ بالدمع يطفر من عيني كنارٍ مغلية، شعرتُ بروحي عالقة في عُنقي، تُنازع للمغادرة، شعرتُ بالدماء تجف وبعروقي تذبل، شعرتُ بشيءٍ قديمٍ كُنت أشعر به دائماً، شممتُ الرائحة القديمة التي كُنت أشمها لسنواتٍ كثيرة بعيدة، شعرتُ ببرودةِ ذلك الشيء الذي كان يدور في الحديقة رغم لهيب الصيف، ها هو! ذلك اللص القديم، يحوم هُنا، حولي، في بيتي وفي حديقتي.

أدرتُ رأسي وأنا أرتعش، لأجده يُحيط بنهار.. يحيط بابني، بطفلي.. وفرحتي الوحيدة بالحياة، وجدته يمسح على رأس نهار وجسده، جسده الصغير، الضعيف، الطافي على سطح مياه المسبح مع كرته البيضاء الصغيرة..

أثير عبدالله النشمي

٢٠١٥م

...الموتَ يغتصبني كل ليلة، يزورني في اليوم أكثر من مرة، في كُل مرة يقترب فيها الموت مني، أترك جسدي له ولا أقاوم، فيعبث بروحي ويلهو بها، حتى يمل من اللهو بي ويتركني لميعاد جديد.

أفكر فيمن سيأتي ويُنقذني من معمعة الموت تلك، من سيقدر على أن يتعايش مع رائحة الموت التي تفوح من مساميّ الصغيرة، من سيتمكن من إلجامٓ صوت الموت الصادح داخل رأسي، من سينتشلني من لجته التي تكاد تُجهزِ عليّ، وتفتك بي.

أُفكر وأُفكر وأُفكر بلا إجابات شافية ولا نتائج مُقنعة، فأدور في مطحنة الأفكار وأتيه في دهاليز الأسئلة.

أثير عبدالله النشمي، سعودية مقيمة في الرياض، من مواليد يونيو ١٩٨٤م.

صدر لها:

- ***أحببتك أكثر مما ينبغي* (رواية)، الطبعة ١٦، دار الفارابي، ٢٠١٥.**
- ***فلتغفري* (رواية) الطبعة ١٢، دار الفارابي، ٢٠١٥.**
- ***في ديسمبر تنتهي كل الأحلام* (رواية)، الطبعة ١٠، دار الفارابي، ٢٠١٥.**


ISBN 978-614-432-537-7

تصميم الغلاف : بثينة العلوي
لوحة الغلاف : عالية الفارسي